

الفصل الخامس

الإسلام يدعو للتعايش مع الآخر

« عالم بلا شقاق »



## الإسلام يدعو للتعايش مع الآخر « عالم بلا شقاق »

مقدمة:

معرفة النفس لا تغنى عن معرفة الآخرين، ومعرفة الآخرين لا تغنى عن معرفة النفس، ولا يحسبن أحد أن هذا المنهاج في الاستنارة الحقيقية هو وليد الواقع المعاصر، وما شهد ويشهد من تسارع وتعاظم في ثورة وسائل الاتصال، فمن القرآن الكريم نتعلم المنهاج الذى يدعوننا، بعد الوعى بالذات واليقين بالحق الذى نؤمن به، ونتمنى إليه، ونجاهد فى سبيله.

يدعوننا هذا المنهاج القرآنى إلى التعرف على الآخرين من حيث الفكر، العرق، اللون، الجنس - النوع - بل والتأمل فيما يقولونه عنا، والتأمل فى صورة ذاتنا لدى هؤلاء الآخرين<sup>(١)</sup>.

وإن الدعوة للتعايش بين الإسلام والأديان ليست دعوة جديدة بل هى قائمة منذ أربعة عشر قرناً وبضع سنين فى الشرق العربى الإسلامى، حيث إن عدداً كبيراً من أصحاب الأديان مشتركون فى المواطنة مع المسلمين فوجدوا فيهم العدل والإنصاف، وحسن الجوار فى المعاملة الحسنة، فعاشوا جنباً إلى جنب متعاونين بل ومنهم من هدى الله، فأسلموا وحسن إسلامهم، ونفع الله بهم أهلهم وقومهم ونفع الإسلام والمسلمين<sup>(٢)</sup>.

ولكن ما يهمنا هنا أن نقول للمسلم: يجب أن تكون نموذجاً مثالياً لأخلاق الإسلام الفاضلة، فتدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، وتجادلهم بالتى هى أحسن، ولا يوجد أفضل من الأسلوب الهادئ فى الإقناع الذى يقوم على الحججة العقلية البالغة والنص الصحيح الصريح.

وإن كلمة الإسلام مشتقة من كلمات السلم والسلام، أو فى مفهوميهما معنى

(١) محمد عمارة: ندوة بعنوان "الاستنارة بين الذات والآخر .. مقارنة قرآنية لاستشفاف الضرورات. موقع الندوة على [www.author.aspname?](http://www.author.aspname?)

(٢) عبد الله بن صالح العيد: الإسلام والتعايش بين أصحاب الأديان، بحث مقدم للمؤتمر العام العاشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ١٩٩٩، بعنوان: "الإسلام والقرن الحادى والعشرون"، ص ١٦٩.

الاستسلام لنواميس الكون ولسنن الله تعالى التي قدرها، وهو ذات معنى المسألة في معاملة الناس<sup>(١)</sup>، والسلام اسم من أسماء الله الحسنى قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَعْلَمُ الْغُيُوبَ﴾ [الحشر: ٢٣].

ولقد مر التعاون بين الأديان والملل بمراحل مختلفة، إذ كان التعصب الديني والمذهبي بدايتها، وهو ما كان يقود إلى التعنت والتصلب في العلاقات بين معتنقى الأديان وأتباع المذاهب، وهو ما كان يقود في أحيان إلى الحرب، وإن تبدل الموقف في العصور الحاضرة إلى نبذ هذا التعصب والتطرف، وتبني الحرية الدينية والتسامح والتساهل في الاعتناق، وكان هناك من يؤيد فكرة التقارب والتعارف بين الأديان وطرح الحوار المشترك.

ولقد قرر الإسلام أن الناس جميعهم من أب واحد وأم واحدة وهم أخوة، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»<sup>(٢)</sup>، وبين الإسلام أن هذه الإخوة لها حقوق وواجبات تعود في جملتها إلى ما يحقق التعاون والتآزر والتآلف، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ فَتَبَيَّنْهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ٦-١٣]، وقال ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تباذروا، وكونوا عباد الله إخواناً»<sup>(٣)</sup>.

هذه هي المعاني السامية التي تربي عليها المسلمون في عهد الرسالة، ونقلوا هذه المبادئ لمن يليهم وهكذا.

ودائماً الإسلام يحث المسلمين على التسامح والعفو، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور].

وينبغي استخدام المصالح المتبادلة بين الإسلام والغرب - العالم الإسلامي والغربي -

(١) جاسم حل سالم: الدين الإسلامي نظام للسلام، المقدم للمؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ٢٠٠٣، بمنوان: "حقيقة الإسلام في عالم متغير"، ص ٢٦٩.

(٢) أخرجه أبو داود: ج ٢/ ١٣، رقم (١٥٠٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ج ٤/ ١٩٨٢، رقم (٢٥٦٣).

كوسيلة لكسب التأييد لقضايا العالم الإسلامي، أو على الأقل تحييد القوى العالمية بحيث لا تتحاز مع القوى المعادية للإسلام والمسلمين، انطلاقاً من حاجة العالم الغربي للعالم الإسلامي، وعلى نفس القدر حاجة العالم الإسلامي للعالم الغربي، ومن هنا تأتى السياسة التى يجب على العالم الإسلامى اتباعها وتفعيل الآليات المؤثرة.

### بين التدافع والصراع:

منهج الدعوة إلى الله فى الإسلام قائم على الحوار، وهناك حوارات وحوارات فى القرآن الكريم تدل على دعوة الإسلام للتداول والمناظرة، وتهدف إلى الوصول إلى الحق فلم تكن حوارات لأجل الجدل، بل هى حوارات هادفة، ومن هنا لا يقبل الإسلام الحوارات التى لا تقدم ولا تؤخر.

إن دعوة الإسلام إلى الحوار، دعوة يقصد بها الحوار الذى يأتى بالخير وينتج السعادة والتعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان، ويؤدى إلى رقى الأفراد ورقى الجماعات، ولذلك جاء النهى عن الجدل بالباطل والكذب<sup>(١)</sup>.

والحوار الذى نقصده هو ما عبر عنه أحد المفكرين المسلمين المعاصرين باصطلاح "التدافع" وهو حراك اجتماعى وثقافى وحضارى، أى تنافس وتسابق بين الحضارات يعدل المواقف الظالمة، والممارسات الجائرة، والعلاقات المنحرفة، دون صراع يصرع الأطراف الأخرى، فيلغى التعددية، وإنما بالحراك والتسابق الذى يعيد العلاقات المختلفة إلى درجة التوازن والعدل فى العلاقات بين مختلف الفرقاء، إنه الحوار الذى يقوم على إيمان الجميع بأن التعددية سنة من سنن الله، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود]، وهذا الاختلاف سبب فى إغناء الحضارات وسبيل للتعارف والتعاون، وليس سبباً للفرقة والاختلاف والتباعد، إذ هو ضرورة، كما أن الحوار ضرورة<sup>(٢)</sup>.

والحوار عملية تشكل الإنتقال من مرحلة التدافع، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة] إلى مرحلة التعارف والتعاون، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]. إنه الحوار الذى تحكمه

(١) أحمد فراج: حقوق الإنسان فى الإسلام من سيات الحضارة الإسلامية، مقدم للمؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية فى الفترة من ٨ - ١١ من ربيع الأول ١٤٢٦هـ / ١٧ - ٢٠ أبريل ٢٠٠٥م، القاهرة، ص ٢٠٧.

(٢) أحمد فراج: مرجع سابق، ص ١٩٨.

عندنا قاعدة شرعية تقول: " أن نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه".

إنه الحوار الذي نكتشف فيه خصوصيتنا ونحددها، ونكتشف المشترك بيننا وبين الآخرين ونثبته، ونتفق على أنه مشترك ونتعاون عليه، إنه الحوار الهادف - الموظف - لتحقيق مصالح الإنسانية المشتركة عن طريق: التعارف وإشاعة قيم التسامح، وتبادل الخبرة والحكمة، والتعاون على البر، والانطلاق من خندق واحد لمواجهة أخطار عديدة تهدد الكيان الإنساني كله على اختلاف عقائد أهله وألوانهم ومصالحهم القريبة، أخطار مثل تلوث البيئة، الأسلحة النووية، المجاعات، التخلف، انهيار القيم الأخلاقية ... وغيرها<sup>(١)</sup>.

وقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلى أن الصراع أو التدافع أو التداول أو الحوار الحضاري، سنة اجتماعية، من سنن الله تعالى وقوانينه، التي لا تتخلف، ولا تتبدل، كما أنها سنة فردية أيضًا، فالإنسان كفرد ليس خارجًا عن دائرة الصراع والتدافع الذاتي، في الاختيار بين دوافع الخير، ونوازع الشر، في نفسه، لأن في ذلك تتحدد حرية الإنسان في الاختيار، وتتميز كرامته، ويتبين فضله، والشر من لوازم الخير، وبضدها تتميز الأشياء.

فالصراع والتدافع هو سبيل الحيوية والنمو، والازدياد، وعلامة الحياة والاستمرار، ابتداء من الخلية، وانتهاءً بالحياة الحية، وهو إحدى محركات الحياة الاجتماعية، وامتداد التاريخ البشري، وله صورته المتعددة، من الحوار، والمفاكرة، والمناقفة، والمناظرة، والقتال، والمواجهة، والمنافسة، والسباق، والمغالبة، كلها صور ومعارك، منها: المشروع المحكوم بضوابط ليست من وضع الإنسان، ومنها ما يستخدم وسائل غير مشروعة، وكل ذلك يقع ضمن دائرة الصراع الحضاري، الذي يندفع من عقائد وأنساق معرفية ورؤى قيمية، وأنماط حياتية وسلوكية تمتاز بخصوصيتها، وتسعى للبرهنة على أحقيتها، وإثبات وجودها، فهي أشبه ما تكون في خصوصيتها ببصمات الأصابع، وسحن الوجوه، وملامح الشخصية، لا يمكن أن تتطابق، ذلك أن التطابق يعني التوقف والموت<sup>(٢)</sup>.

والصراع بين الخير والشر، والعدل والظلم، والحب والحقد، والعفو والثأر، والإيثار

(١) أحمد فراج: مرجع سابق، ص ١٩٩.

(٢) أحمد القديري: الإسلام وصراع الحضارات، كتاب الأمة، سلسلة، فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد (٤٤)، ط ١، مايو، ١٩٩٥م، تقديم: عمر عبيد حنة، ص ١١٠، ١١١.

والأثرة، والحق والباطل، وبعبارة أخرى: الصراع بين المعروف والمنكر، لا يتوقف إلا بتوقف الحياة. قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا ﴾ [الفرقان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

إنها ابتلاءات الحياة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْتُكُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨]. فإبليس أبى السجود والطاعة لأمر الله، وتمرد منذ بدء الخليقة وقال: ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الاعراف: ١٦]، فقال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ [١٧] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر: ١٥]. واستمرت رحلة الغواية والصراع، وكان لها جولات ممتدة في تاريخ البشرية، أفرادًا وجماعات، وأخذت أشكالًا متنوعة، واستراحات، واسترخاءات، هي غالبًا ما تكون استعدادًا لجولات جديدة. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [١٦] إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤].

ولعل من مظاهر رحمة الله سبحانه وتعالى، هذا التدافع والاختلاف، الذي من خلاله يظهر الحق، ويتقوى، وبسببه تنجو الحقيقة من الدمار، والخير من الجفاف، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هُدًى مَتَّصُونَ صَوْمِعُ وَيَبِيعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

والذي يدرك سنة التدافع والصراع، وأطرافه وميادينه، ومساراته يصبح قادرًا على حسن تسخيره، والفقهاء بنتائجه، ويمتلك القدرة على المداخلة، والتحكم، ومغالبة سنة بسنة أو قدر بقدر، ويمتلك القدرة على الحركة في كل الظروف وإيجاد مساحات لزراعة

الحقيقة وتميتها<sup>(١)</sup>، ومن هنا ندرك بدقة مغزى ومعنى قول الرسول ﷺ: «... وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»<sup>(٢)</sup>، وندرك النتائج العظيمة من نصره الحق التي ترتبت على قدرة وحكمة الصحابي الجليل نعيم بن مسعود رضي الله عنه في غزوة الأحزاب، عندما رمت العرب المسلمين عن قوس واحدة، حيث تكالبت عليهم، وتحالفت: اليهودية، والوثنية، والقبلية، وابتلى المؤمنون هناك، وزلزلوا زلزالاً شديداً، حتى لقد بلغت القلوب الحناجر، وبدأت الظنون تسرب إلى النفوس الضعيفة<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى في ذلك: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ هَذَاكَ أَتَّبَلِي الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿٥٠﴾ [الأحزاب]. في هذه اللحظات الحاسمة وهذه الشدة الشديدة من المواجهة، أسلم نعيم بن مسعود، وجاء خفية إلى الرسول ﷺ، وقال فيما ترويه كتب التاريخ والسيرة: أسلمت، ولم يعلم أحد بإسلامي، فمرني بما ترى، فقال له الرسول ﷺ: - بما معناه: «إنما أنت فينا رجل واحد، وإن الحرب خدعة، فخذل عنا ما استطعت»، فكان ما كان من نعيم، من فهم، واستيعاب، وفقه لسنة التدافع وعوامله، ومدخله، وكان النصر بعد الشدة، وكان البلاء نعيماً في الوقت المناسب، وفاعليته، أعظم من جيش كامل، بخططه وعدده<sup>(٤)</sup>.

صحيح بأن المسلم يعتقد بأن النصر من عند الله، وهي حقيقة، يجب ألا تغادر نفسه، لكن صحيح أيضاً، أن هذا النصر أرادته الله أن يتحقق من خلال أقدار وسنن وعزمات بشر، وأسباب ومسببات، وكم يحتاج المسلمون اليوم - في حالات الحصار التي تفرض عليهم ويعانون منها أشد المعاناة - إلى نماذج ذكية، فقيهة بسنن وأقدار التدافع الحضاري، قادرة على دخول حلبة الصراع، بجدارة واقتدار، إلى درجة قد تمكن من إدارة الصراع، وتحقيق كسب أكبر للقضية الإسلامية<sup>(٥)</sup>.

فكم نحن بحاجة إلى نماذج من أمثال نعيم، قادرة على التحرك في الوقت المناسب، وحسن استخدام المتاحة، ذلك أن الإنسان المسلم، بمقدوره أن يحقق الكثير، إذا أدرك

(١) أحمد القديري: الإسلام وصراع الحضارات، مرجع سابق، ص ١٣.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري: كتاب (الجهاد والسير)، باب (إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر)، ج ٣، ص ١١١٤، رقم الحديث (٢٨٩٧).

(٣) أحمد القديري: الإسلام وصراع الحضارات، مرجع سابق، ص ١٣.

(٤) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري، ج ٢، ط ١، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧، ص ٩٦.

(٥) أحمد القديري: الإسلام وصراع الحضارات، مرجع سابق، ص ١٤٠.

إسلامه وعقيدته، وفقه المعادلة الاجتماعية، التي يعيشها.

ومن هنا ندرك كيف يمكن أن يكون الفرد أمة، وخاصة عند غياب الأمة.

ويقول تعالى: ﴿ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَتِيلِكُمْ سُنَنٌ فَمَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران] ، أى: أن العلم بسنن الله تعالى، من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن الكريم يجبل عليه في مواضيع كثيرة، وقد دلنا على مآخذه على أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض، لأجل اجتلائها، ومعرفة حقيقتها، والسنة كما هو معلوم: الطريقة المعتبرة، والسيرة الحميدة المتبعة، والقانون المطرد، الذى لا يتبدل ولا يتحول، قال تعالى: ﴿ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب] ، فالحياة لم تخلق عبثًا، وإنما خضعت لسنن وقوانين، وأمر البشر في اجتماعهم، وما يعرض فيه من الصراع والتدافع الحضارى، بين الحق والباطل، وما يتبع ذلك من الحرب، والتزال، والملك، والسيادة، والتداول الحضارى، يجرى على طرق قويمه، وقواعد ثابتة، فمن سار على سنن الله ظفر بالفوز، وإن كان ملحدًا أو وثنيًا، ومن تنكبها خسر، وإن كان حنيقًا مسلمًا<sup>(١)</sup>.

إننا اليوم في أوطاننا، وخارج أوطاننا، نعانى من حرج الصدر تجاه الآخر، وتجاه الرأى الآخر، نعانى من سيادة مرحلة التدافع، وعدم رؤية الروزنة والنافذة التى ترتقى بنا إلى مرحلة التعارف، لا لشيء إلا لأننا لم نستنطق القرآن بالقدر الكافى، وهذه هى آلية الطرد إلى أعلى، نظرنا إلى القرآن بإعتباره مقدسًا، فطردناه نحو الرفوف فى حين أن القرآن جاء ليفهم ويتدبر<sup>(٢)</sup>. فالله سبحانه وتعالى يقول موبخًا البشر: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ أَمْرٌ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] ، إذ لا حجة للبشر ألا يتدبروا القرآن، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر]. لكى نستنطقه ونستهدى به نحو التى هى أقوم كما قال سبحانه وتعالى عن هذا القرآن.

احترام وجود الآخر .. أم إلغاؤه؟<sup>(٣)</sup>

تتصاعد وتيرة العنف سواء منه الدينى أو العرقى، فى أماكن متفرقة من العالم ومنها العالم العربى، هذه الظاهرة نريد أن نتعمق فى دوافعها وجذورها من أجل تلافيتها والعيش

(١) أحمد القديرى: الإسلام وصراع الحضارات، مرجع سابق، ص ١٦.

(٢) محمد وجيه الصاوى: مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٣) محمد وجيه الصاوى: مرجع سابق، ص ٢١١-٢١٢.

في سلم وأمن وقبول للآخر. قال تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَكْثَرُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة]، وتحت أسطر هذه القصة المروية في القرآن، يكمن مغزى فلسفي عميق لكيفية مواجهة المشاكل الخطيرة، والحلول لهذه المشاكل الإنسانية أثناء احتدام الصراع البشري، دعنا نتأمل القصة كما جاءت في القرآن الكريم لمزيد من الفهم.

قال تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة].

يلاحظ أن: القرآن الكريم يستخدم أساليب قريبة للفهم الإنساني، فهو يستخدم هنا القصة لينزل إلى الواقع ويتزج منه ما يريد؛ ونظرًا لأن الصراع البشري له مسبباته ونتائجه التي تحكمه؛ لذا فإن النزول إلى (الواقع) لأخذ العينة منه ثم نقلها إلى معمل التاريخ له ما يبرره تمامًا، بل يشكل الطريق السليم لمعرفة مصدر الصراعات.

(الواقع) أكبر من النصوص؛ لأنه يشكل المصدر الذي يراه البشر جميعًا، ولأن الواقع هو النص مجسدًا، في حين أن النصوص تتعلق بالخلفية الثقافية التي يحملها البشر، والتي بموجبها يفهمون النصوص ويتعاملون بها، ويختلفون بل ويتنازعون بل ويفتلك بعضهم ببعض من أجل الخلافات في وجهات النظر (لأقتلنك) وهم يواجهون النصوص.

وما حرب الخليج الأخيرة، إلا نموذج لعجز النصوص عن حل المشاكل، حينما شكلت المؤتمرات الإسلامية في ساحتي الصراع المتنازعتين، واستخدمت النصوص لدعم موقف كل فريق، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأمون]، والذي حل المشكلة في النهاية هو طرف خارجي، وكان حلها ليس استنادًا إلى النصوص ولا رجوعًا إليها.

بل لماذا نذهب بعيدًا، لتتذكر معركة (صفين) القديمة، حيث رفعت المصاحف على رؤوس الرماح ادعاءً للرغبة في التحاكم إلى النصوص، وحلت بدون تدخل (فريق خارجي) ولم يكن الطرف الذي طلب التحاكم إلى النصوص بأنزله الطرفين ولا أتقاهما، ويعلمنا التاريخ أن التحاكم القديم إلى النصوص لم يحل المشكلة إن لم يكن قد زادها تعقيدًا.

وفي الحرب العراقية - الإيرانية تم توظيف الدين سياسيًا مرة أخرى، حيث اعتبر

العراق أنها معركة القادسية، في الوقت الذي اعتبرت فيه من طرف الإيرانيين أنها معركة (كربلاء) ومات في معركة القادسية - كربلاء قرابة ٦٥٠٠٠ إنسان، منهم ٤٥٠٠٠ إيراني، ٢٠٠٠٠ عراقي، أى ما يعادل سكان مدينة متوسطة الحجم.<sup>(١)</sup>

وفي الواقع فإن تجسيد النص على الأرض هو (الواقع) أى أن: (النص والواقع) يشكلان معادلة كما هو الحال في علاقة المادة والطاقة، إلا أن المصدر هو دومًا الواقع، في حين أن النص هو لغة التعبير عن الواقع، وفي هذه النقطة يحصل الخلاف البشرى أى في تفسير الواقع، وإلا فإن جميع البشر يرون الشمس والقمر والسحاب كما يرون تساقط المياه وتبخر الماء وذوبان الشمع، كما يرون الخلية وولادة الأشياء وظاهرة الموت. وهذه النقطة هى رمز الإنسان من جهة كما هى رمز عذابه ومعاناته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد].

جدلية الإنسان إذاً هى في كونه يختلف مع أخيه الإنسان في تفسير الواقع، إلا أن صورة الاختلاف قد تكون رحمة ومصدر نمو واقترابًا متواصلًا من الحقيقة النسبية، في نفس الوقت الذى قد تتحول إلى مصدر صراع ضار يصعد إلى مستوى سفك الدماء وتصفية الآخر، كما هى في القصة التى بين أيدينا.

والإشارة إلى ابنى آدم لا تعنى بالضرورة أولادًا معينين تاريخيًا، كما ذهب إلى ذلك العهد القديم وتحت أسماء بعينها هما قابيل وهابيل، فأولاد آدم هم رمز لبنى الإنسان وصراعهم - صراعاتهم - واهتم القرآن بتتبع أشكال الصراع البشرى منذ بداية فجر التاريخ البشرى.

إذن في ضوء فكرة من هذا النوع يمكن فهم آيات صراع ولدئى آدم، التى هى صور الصراع البشرى الأولى، والتى مازالت تكرر نفسها في صور شتى سواء في صورة صراع شخصين يتسبان لنفس المهنة أو صور الحروب الرهيبة بين الدول؛ لأن صورة الصراع الأولى البسيطة هى بذرة الصراع المشروع الأخير.

وإن الغرب - الحضارة الغربية - على مدى جيل واحد (٣٠ عامًا) من ١٩١٤م إلى ١٩٤٤م فجر - حربين عالميتين، راح ضحية الأولى ثلاثون مليونًا من البشر، وراح ضحية

(١) عماد وجيه الصاوى: مرجع سابق، ص ٢١٣.

الثانية سبعون مليوناً من البشر، وانتهت هذه الأخيرة بفاجعة نووية، مسحت من على الأرض مدينتين كاملتين، هما هيروشيما وناجازاكي باليابان. وهذه الأحداث ليست من عصر ما قبل التاريخ بل إن بعض (أبطالها) وضحاياها، ما يزالون يعيشون بيننا إلى اليوم<sup>(١)</sup>.

والفكر المادى الغربى هو الذى أباد شعوباً كاملة، كان آخرها شعب سكان أمريكا الأصليين، الملقبين بالهنود الحمر منذ عام ١٤٩٢م إلى أواسط هذا القرن العشرين، ومحاولة إبادة شعب فيتنام، ومحاولة إبادة ستالين لمخالفه التى قدر عددها المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى نفسه، بخمسة ملايين ضحية فى ثلوج سيبيريا<sup>(٢)</sup>.

وبالرجوع إلى لفظة: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ من الآية (٣١) من سورة المائدة، فهى تشير إلى تصعيد الصراع البشرى من مستوى الخلاف فى الآراء والمصالح إلى القتال والتنصيف الجسدية، أى (إلغاء الطرف الآخر)، وهذا الأسلوب هو المقابل تماماً للحوار، ومحاولة حل المشكلة بين الطرفين الإنسانين بدون أن يحذف أحد الأطراف، وطبعاً هذا الحذف يعتمد إلغاء جدلية الوجود كلها، بحيث يمكن نقل هذا الإلغاء أو هذه الجدلية من مستوى فرد وفرد، إلى مستوى أمة حين يلغى الفرد إرادة الأمة من خلال النظام الفردى، لأن الأنظمة الديكتاتورية تعتمد إلغاء إرادة الأمة، وهى ثمرة خبيثة من الشجرة الخبيثة الأولى من الكلمة الخبيثة ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ آجْتُنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

فالآية القرآنية قارنت بين الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة، وبين الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة، بمعنى أن الكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، فالؤمن كلما قال: (لا إله إلا الله) صعدت إلى السماء ثم جاء خيرها ومنفعتها، والشجرة الخبيثة مثل شجرة الحنظل أى: تنمو إلى حد أن تصبح شجرة ثم تستأصل من جذورها وتقتلع من جذورها لعدم ثبات أصلها<sup>(٣)</sup>. إذن فمن طبيعة الكون - على ما يبدو - أن الفساد ينمو أيضاً ويكبر ويضخم ويقوى، وهو ما نشاهده بالفعل فى الحياة اليومية فى صور شتى، إلا أن هناك بنفس الوقت آلية خاصة فى الطبيعة تعتمد على تفتيت وهدم الباطل الضار

(١) أحمد القديرى: الإسلام وصراع الحضارات، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٢) المرجع نفسه: ص ٧٥.

(٣) محمد على الصابونى: صفوة التفاسير "تفسير للقرآن الكريم"، ج ٢، دار الصابونى للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص ٨٩.

والسعي، وهو قانون في الطاقة والمادة والروح، في الطبيعة والتاريخ والبنية النفسية والكيان الاجتماعي. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]. ويقول تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

### تحقيق معنى قبول الآخر<sup>(١)</sup>:

معنى قبول الآخر هو الموافقة والرضا، وهو أيضًا من المعاني المجردة التي تحتاج إلى ضبط واقعي وتمثيل حسي حتى تدرك وتتصور، ويصبح بإمكان العقل البشري فهمها. وهذا لا يتأتى إلا ببيان الموضوعات التي ينصبُّ عليها القبول، أي: بيان ما يمكن الموافقة عليه والرضا به.

والبديهي، أن قبول إنسان لآخر أو رفضه ينصبُّ على ما يجعل هذا الآخر مختلفًا عن ذلك الإنسان ومغايرًا له، ولا ينصب على ما يشترك فيه الاثنان ولا يتميز به أحدهما عن الآخر.

ذلك أن الإنسان من حيث الفطرة وأصل الخلقة هو الإنسان، لا فرق فيها بين شخص وآخر، ذكرًا كان أم أنثى، أسود كان أم أبيض، عربيًا كان أم أوروبيًا. فالغرائز والحاجات العضوية هي عند جميع البشر، فلا ترد هنا مسألة الآخر؛ لأن الآخر هو المقابل لك المختلف عنك بسمات وميزات جعلته بالنسبة لك كيانًا منفصلًا قائم الذات.

وعليه، فإن قبول الآخر أو رفضه يكون في الأمر الذي ميزه عن أخيه الإنسان، فهمه ما هو مكتسب كالأفكار، ومنه ما هو غير مكتسب ولا إرادة للبشر في اختياره كالعرق واللون والجنس والنوع، فالإنسان يولد أوروبيًا أو أمريكيًا أو يولد أبيض أو أسود أو يولد ذكرًا أو أنثى دون إرادته واختياره.

والموافقة المرادة هنا إما أن تكون على وجود الآخر، أي: توافقه على حقه في الوجود بوصفه الفردي أو الجماعي، وإما أن تكون على مطلب للآخر كالعيش معك وإما أن تكون على ما جعل الآخر في نظرك آخر، أي توافق على تميزه عنك بأفكاره وعقيدته ولونه وعرقه وجنسه وغير ذلك.

والرضا المراد هنا: إما أن يكون رضا بالآخر بالرغم مما هو عليه، أي: ترضى بالآخر كما

(١) ياسين بن علي: دراسة مقارنة بين سماحة الإسلام والغرب، مجلة المسلم المعاصر، العدد (١١٧)، السنة الثلاثون،

هو بسماته التي ميزته عنك، وإما أن ترضى له ما هو عليه، وإما أن ترضى عما هو عليه. هذا هو معنى قبول الآخر، وهذا هو المراد منه المتبادر إلى الذهن حيث بحث المسألة، فما هو حكم الإسلام في هذا؟ وما هي المعاني التي اعتبرها الإسلام؟ وما هي المعاني التي لم يعتبرها؟ والجواب على هذا يقتضى منا تناول الآتى:

قبول من خالفك في العرق واللون:

لم يعتبر الإسلام المخالفة في العرق واللون بين البشر في أى شيء، فكل الناس عند الله عز وجل، وفي نظر نظام الإسلام وقانونه سواسية، لا فرق بين عربى وعجمى، أو بين تركى وأوروبى، أو بين أسود وأبيض، أو بين أصفر وأحمر إلا بالتقوى والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم].

وقد أرسل الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ إلى الناس كافة، رحمة للعالمين، فقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء].

وقد دعا النبي ﷺ الناس جميعاً إلى الإسلام، فدخلوا فيه أفواجا، دخل فيه سلمان الفارسى، وكان من الصحابة الأولين، وكان من المقربين من نبي الرحمة ﷺ، حتى قال فيه النبي ﷺ فيما يروى عنه: «سلمان منا آل البيت»<sup>(١)</sup>، ودخل فيه بلال الحبشى الأسود، وكان من الأولين ومن المقربين، وهو مؤذن الرسول ﷺ وإمام المؤذنين، ودخل فيه أبو عبد الله ابن سلام اليهودى، وكان سيِّداً من سادات المدينة.

فالتميز العنصرى القائم على العرق واللون حرمه الإسلام، واعتبره عصبية جاهلية منتنة.

فعن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»<sup>(٢)</sup>. وقال ﷺ: «من قتل تحت راية عمية،

(١) الطبرانى (٢١٢ / ٦) (٦٠٤٠)، وضعفه الألبانى في ضعيف الجامع .

(٢) أخرجه أبو داود: ك (السنة) ب (التفاخر بالأحساب) ٣٣١ / ٤ رقم (٥١٢١) طبعة: دار الفكر - بيروت.

يدعو عصبية، أو ينصر عصبية، فقتله جاهلية"<sup>(١)</sup>.

أما في الغرب، فإنه وإن كان جملة كبيرة من القوانين التي تمنع التمييز وتقاومه، إلا أنها لم تلامس عقلية الكثيرين من الغربيين ونفسياتهم، فحوادث التمييز العنصري القائم على العرق واللون أكثر من أن تعد في المجتمع الغربي، وسجون الولايات المتحدة، وفرنسا، ونشأة الأحزاب القومية في أوروبا أكبر شاهد على ذلك.

فنجاح الإسلام في إذابة الفروق، فرق العرق واللون في المجتمع الإسلامي يعود إلى إيمان معتنقيه بأن الحق من رب العالمين، وأن التمييز حرام يعاقب عليه الله يوم القيامة. فعن الرسول ﷺ، أنه قال: «كلكم من آدم، وآدم من تراب»<sup>(٢)</sup>، فلا فرق بين البشر إلا بالتقوى. وأما فشل الغرب في القضاء على النزعة العنصرية في مجتمعه، فيعود إلى أن القانون لا يلتزم به فناعة فيه، وإيماناً بأنه الحق، إنها خوفاً من العقاب الدنيوي، لذلك فإن الكثيرين في الغرب يبتغون التمييز ويعتقدون أفضليتهم على الآخرين لمجرد كونهم ولدوا بيضاً. قبول من خالفك في الجنس (النوع):

إن ما يسمى بقضية المرأة، من القضايا التي يعتمدها الغرب في نشر حضارته، ونقض حضارة الآخرين، وعلى وجه الخصوص الحضارة الإسلامية، فالغرب يدعى أنه يحترم المرأة ويكرمها، فتبنى فكرة تحريرها، ونادى بحقوقها في الحياة والمجتمع وطالب بمساواتها بالرجل. ولقد خفى عن الغرب، أن الدعوة لتحرير المرأة اعتراف باستعباده لها، والدعوة لإعطائها حقوقها اعتراف بهضمه لحقوقها، والمطالبة بمساواتها بالرجل اعتراف بأنها ناقصة عنده، نعم فحينما تبنى الغرب مثل هذه الأفكار فقد صرح ضمناً بأنه مقصر في حق المرأة ومضيع لحقوقها، وحينما تنص الدساتير الغربية على تمتع الرجال والنساء بحقوق متساوية، فإنها تفضح حقيقة وضع المرأة في الغرب - المجتمعات الغربية - لأن تقنين المساواة في الحقوق مع تخصيص كل نوع بالذكر دليل على التفرقة بينهما، فلو كانت هناك مساواة حقيقية بين الرجل والمرأة في الغرب لاكتفى المشرع الغربي بقوله في الدستور: «جميع الناس متساوون أمام القانون ويتمتعون بحقوق متساوية» لكن وجود النظرة

(١) أخرجه مسلم: ك (الإمارة)، ب (وجوب ملازمة جماعة المسلمين) ١٤٧٨/٣ رقم (١٨٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي: ك (الناقب)، ب (في فضل الشام واليمن) ٧٣٥ / ٥ حديث رقم (٣٩٥٦).

الدونية إلى المرأة دفعت المشرع الغربي إلى التنصيص على المساواة مع تخصيص النوعين بالذكر<sup>(١)</sup>.

وقد يظن بعض الناس، أن الغرب حقق ما يدعيه من مساواة بين الرجل والمرأة وأنه ضمن للمرأة، حقها كله، غير أن هذا الظن ليس في محله، فلا زال الغرب منشغلاً بالمسألة ذاتها التي مضى عليها عقود من الزمن، وها هو البرلمان الألماني - مثلاً - يعدل في ٣٠ يونيو ١٩٩٤م المادة الثالثة من دستوره فينص على ما يلي: "تقوم الدولة بتشجيع ودعم التطبيق الفعلي للمساواة بين النساء والرجال، وتعمل على إزالة المساوئ الموجودة"<sup>(٢)</sup>.

وهذا التعديل الدستوري، لا يدل على مجرد اعتراف فقط بعدم تحقيق المساواة بين النساء والرجال، بل هو بمثابة التنصيص الدستوري على ذلك، فإذا نص الدستور في سنة ١٩٩٤م، على العمل على التطبيق الفعلي للمساواة، فإنه ينص ضمناً على عدم وجودها.

والأصل في فكرة المساواة بين النساء والرجال التي يتبناها الغرب، الوضع المشين الذي كانت عليه المرأة في المجتمع الغربي، ذلك أن المرأة كانت مهضومة الحقوق، معزولة عن حركة المجتمع، لا يلتفت إليها ولا يلقي لها بالاً، فلما طالبت بحقوقها، اتخذت فكرة المساواة كطريق لتحقيق مطالبها، ونودي بالتسامح معها.

فلننظر إلى المرأة عند اليونانيين القدامى - وهم أكثر شعوب الدول القديمة تمدناً وأخذاً بأسباب الحضارة - مسلوية الحرية، معدومة المكانة في كل ما يتصل بالحقوق الشرعية، بل إن فيلسوفاً كبيراً مثل أرسطو (ت ٣٢٢ ق.م) كان يعيب على أهل أسبرطة أنهم يتساهلون مع نساء عشيرتهم ويمنحونهن بعض الحقوق التي تفوق أقدراهن<sup>(٣)</sup>، وكانت المرأة في التاريخ اليوناني الأول قعيدة البيت، محصنة عفيفة، لكنها محرومة من الثقافة، لا تسهم في الحياة العامة بقليل ولا كثير، تنحصر مهمتها في الحياة: تحقيق مطالب الزوج وإنجاب الأطفال، وهي مع ذلك مهينة ذليلة، "وإذا وضعت ولدًا دميماً قضوا عليها"<sup>(٤)</sup>، وأثر عن أفلاطون أنه: دعى إلى شيوع النساء، وإلغاء نظام الأسرة<sup>(٥)</sup>. ولم تكن المرأة عند الرومان

(١) ياسين بن علي: مرجع سابق، ص ١٤.

(٢) مجلة ألمانيا DEUTSCHLAND العدد (٥)، شهر (١٠)، ١٩٩٥، ص ١٤، نقلًا عن ياسين بن علي: مرجع سابق، ص ١٥.

(٣) فوزية الزنواف: مكانة المرأة في الإسلام، مجلة الأزهر، ج ٤، السنة (٧٧)، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، القاهرة، ص ٥٨٧.

(٤) غوستاف لوبون: حضارة العرب، تعريب: عادل زعيتر، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ /

١٩٧٩م، ص ٤٩٠.

(٥) أحمد طه محمد: المرأة المصرية بين الماضي والحاضر، مطبعة دار التأليف، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ٢٦.

بأحسن حالاً من أختها عند اليونان، فقد كانت المرأة تتخذ عشيقة - اتخذت العشيقات الكثيرات العدد - والتي تعترف به الدولة رسمياً. والنتيجة الحتمية لذلك كانت ضياع المرأة ثم انزلاقها إلى مهاوى البيع والشراء<sup>(١)</sup>.

أما المرأة عند اليهود، فكانت تُعد في منزلة خادم، وكان الأب يسمح له أن يبيع ابنته وهي صغيرة، ويتسلم ثمنها. وكانت الفتاة اليهودية لا تترث شيئاً من أبيها إلا في حالة واحدة وهي: إذا لم يترك الأب أحداً من الأبناء بعد وفاته، فإذا كان له أبناء حرمت ابنته من الميراث<sup>(٢)</sup>.

وكتب اليهود المقدسة تعتبر المرأة متعة جسدية، يقول التلمود - وهو الكتاب الثاني من كتب اليهود بعد التوراة: إن المرأة من غير بنى إسرائيل ليست إلا بييمة، لذلك فالزنى بها لا يعتبر جريمة لأنها من نسل الحيوانات. والغريب في ذلك أن شهادة امرأة تعادل شهادة رجل واحد عندهم<sup>(٣)</sup>.

ولم تكن المرأة عند الصينيين بأوفر حظاً من غيرها ممن سبقوها، فقد كان من حق الزوج أن يسلب كل حقوق زوجته ويبيعها كجارية، كما كان يحرم على الأرملة الزواج بعد وفاة زوجها، وكان الصينيون ينظرون إلى المرأة على أنها معتوهة، لا يمكنها قضاء أى شئ من شؤونها إلا بتوجيه من الرجل<sup>(٤)</sup>.

وكانت المرأة في المسيحية حتى نهاية القرن الثامن عشر تعتبر ملكاً للزوج، يمكن أن تباع، مأمورة بطاعة زوجها، ونظر إليها باعتبارها فخاً نصبه الشيطان لتدمير الروح، ومع هذا فقد نظر إليها على أنها مساوية للرجل في الناحية الروحية والدينية.

والإقطاع عمل على تحرير المرأة ودخولها ميدان العمل، وقال القديس "توماس الإكويني" إن المرأة يجب أن تكون خاضعة للرجل وهذا بحكم ضعفها الطبيعي، وأن الأبناء يجب أن يجوبوا آباءهم أكثر من أمهاتهم. وقد دخلت المرأة مجال الطب في العصور الوسطى وبخاصة مجال التمريض، وعلى هذا فقد ساعدت هذه النظرة للمرأة على كبتها،

(١) فوزية العشماوى: الشخصية القانونية للمرأة المسلمة وأثارها على المجتمع، المؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، المحور الرابع: "نظرة الإسلام إلى المرأة"، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م، ص ١.

(٢) محمد عطية الإبراشي: عظمة الإسلام، ج ٢، ص ١٨٣.

(٣) إبراهيم أبو محمد: تكريم الإسلام للمرأة بين رؤيتين، المؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٤) إبراهيم أبو محمد: مرجع سابق، ص ٣٥.

لذلك لم تتج أوروبا امرأة ذات عظمة عقلية أو اشتهرت لعقليتها الكبيرة. (١)

وفي ظل المسيحية كانت المرأة طبقاً للقديس تروتوليان: "مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان"، وفي القرن الخامس الميلادي قرر مجمع ماكون بعد دراسة؟ مسألة المرأة وهل هي مجرد جسم لا روح فيه أم لها روح؟ وبعد دخول أوروبا في الدين المسيحي ظلت الشعوب الأوربية تشكك في طبيعة المرأة وتعتبرها كائنًا مختلفًا عن الرجل، فقد عقد الفرنسيون في القرن السادس الميلادي مؤتمرًا عام ٥٨٦م لدراسة قضية المرأة، وهل هي إنسان أم غير إنسان؟ وخلصوا إلى نتيجة: "أن المرأة إنسان خلقت لخدمة الرجل فحسب". وبالرغم من التقدم الذي عرفته فرنسا في عصر النهضة وبعد الثورة الفرنسية إلا أن القانون الفرنسي ظل يعتبر المرأة قاصرًا، وقد نص قانون نابليون على أن المرأة: "ليست أهلاً للتعاقد دون رضا الوصي عليها إن كانت غير متزوجة، أو الزوج إن كانت متزوجة"، ونص هذا القانون على أن القاصرين هم: "الصبي والمجنون والمرأة"، وظل قانون نابليون معمولاً به في فرنسا وفي كثير من الدول الأوروبية حتى عام ١٩٣٨م، حيث عدل هذا القانون في فرنسا، واعتبر المرأة الفرنسية ذات شخصية قانونية فيما عدا بعض القيود على المرأة المتزوجة التي لا تزال حتى الآن تخضع لزوجها في كثير من المعاملات المالية، خاصة إذا كان نظام الزوجية هو نظام توحيد الأموال بين الزوجين، وتعتبر المرأة المتزوجة مسؤولة عن ديون الأسرة وديون زوجها حتى الآن في فرنسا (٢).

ولقد خلق الله تعالى الإنسان - امرأة ورجلاً - في فطرة معينة تمتاز عن الحيوان، فالمرأة إنسان، والرجل إنسان، ولا يختلف أحدهما عن الآخر في الإنسانية، ولا يمتاز أحدهما عن الآخر في شيء من هذه الإنسانية، وجعل في كل منهما قوة التفكير، وهي قوة التفكير نفسها الموجودة في الآخر، فالعقل الموجود عند الرجل هو العقل نفسه الموجود عند المرأة إذ خلقه الله عقلاً للإنسان، وليس عقلاً للرجل أو المرأة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وحين جاء الإسلام بالتكاليف الشرعية التي كلف بها المرأة والرجل، وحين بين الأحكام الشرعية التي تعالج أفعال كل منهما، لم ينظر إلى مسألة المساواة أو المفاضلة بينهما

(١) محمد أحمد العدوي وآخرون: محاضرات في تاريخ التربية ونظام التعليم في مصر، ج١، كلية التربية، جامعة الزقازيق، ١٩٩٨، ص ١٢٩.

(٢) فوزية العشماوي: الشخصية القانونية للمرأة المسلمة وأثرها على المجتمع، مرجع سابق، ص ٢.

آية نظرة، ولم يراعها أية مراعاة. فالإسلام جعل لكل من الرجل والمرأة حقوقاً وواجبات، وهذه الحقوق والواجبات تتعلق بمصالحهما، ومن هنا نجد الإسلام لم يفرق في دعوة الإنسان إلى الإيثار بين الرجل والمرأة، وجعل التكاليف المتعلقة بالعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج واحدة من حيث التكاليف، وجعل أحكام المعاملات من بيع وإجارة ووكالة وغير ذلك واحدة للرجال والنساء، وأوجب التعليم والتعلم للرجال والنساء، ومن ثم شرع تعالى الأحكام المتعلقة بالإنسان - ذكراً وأنثى - واحدة، قال تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

فالإسلام أنقذ المرأة من كل المظالم، وعاملها معاملة كلها إنصاف، واحترام ومكانة، وإجلال. ولم تعط المرأة حقها - وهي بنت أو زوجة أو أم - إلا في الإسلام، فأعطيت الحق في الحياة، والحق في الميراث، والحق في التملك، والحق في التعليم، والحق في الشهادة، ... ومن ثم، فنظرة الإسلام للمرأة كانت مغايرة تماماً لنظرة الفلاسفة الوضعية لها، فقد رأينا فيما سبق أن المرأة لم تكن تتمتع بنظرة محترمة وكانت مكانتها الاجتماعية على قدر كبير من الدونية، فكانت عند اليهود دورة للروح في حياة شريفة، وعند اليونان ظللاً للرجل وبمجرد تابع له، ولا تملك من أمرها شيئاً، ونفس الشيء عند الرومان، وفي المسيحية كانت فخاً نصبه الشيطان للرجل، وأنها سلاح إبليس للفتنة والإغراء، وفي أوروبا هضم القانون الأوربي كل حقوق المرأة.

كما أن الإسلام برأ المرأة من اللعنة التي ألصقها بها أتباع كل من اليهودية والمسيحية، فقد استخدم القرآن الكريم في سرد وقائع خروج آدم وحواء من الجنة صيغة المثني، وجعل مسئولية العصيان مشتركة بينهما، ولم يشر القرآن من قريب أو بعيد إلى أن حواء أغوت آدم وأخرجته من الجنة، فقد جاءت الآية الكريمة تبرئ حواء من هذه التهمة في قوله تعالى: ﴿ فَأَزَلُّهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنَّا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٣٦].

كما نجد نفس صيغة المثني حين تابا إلى الله واعترفا بذنبيهما معاً وطلباً الغفران: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].

قبول من خالفك في الفكر:

إن الاختلاف بين البشر طبيعي، فلكل منهم عقيدته، ونظامه، ودينه، ونمط عيشته،

ووجهة نظره، ومقياس أعماله والأفكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك، فمن الصعب - إن لم نقل من المستحيل - أن يجتمع البشر قاطبة على رأى واحد<sup>(١)</sup>، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ<sup>١٠</sup> وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴿ [هود] .

لذلك فالإسلام يقر بوجود هذا الاختلاف بين البشر في عقائدهم وأفكارهم وأديانهم، ولا يرى إمكانية جمع الناس على فكر واحد، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف] . وقال تعالى: ﴿ التَّمْرُ تِلْكَ آيَةٌ الْكِتَابِ<sup>١١</sup> وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الرعد] .

هذا هو واقع البشرية، وواقع اختلافهم في الفكر الذى لا يمكن نكرانه أو تحاشيه. والسؤال هو: ما هى الأحكام المترتبة على هذا الواقع؟ وكيف يتعامل الإسلام معه؟ والجواب على هذا فى النقاط التالية:

١- إن الإسلام وإن أقر باختلاف الفكر بين البشر، أى اعترف بوجوده باعتباره واقعا قائما على الذات، لا يُمكن نكرانه، ولا يرضى عنه ولا يرضى به. فكل فكر غير فكر الإسلام، وغير الفكر القائم على عقيدته، يعتبر فى نظر الإسلام باطلا لا حق فيه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَإِيسْلَمُوا ﴾ [آل عمران] ، وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران] . وقال تعالى: ﴿ فَذِكْرُ اللَّهِ رَبِّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتُمْ تُصِرُّونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يونس] . وقال الرسول ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد»<sup>(٢)</sup> .

ولا يفوتنا فى هذا السياق الإشارة إلى نقطة مهمة ألا وهى: الانتفاع بالفكر الغربى ما لم يكن مناقضا لعقيدة الإسلام ومضادا لها. فعند الغرب أمور لنا أن نتفع بها، بل يجب أن نتفع بها، كالأمر العلمى والتكنولوجية.

٢- إن الإسلام - وإن أقر اختلاف الفكر بين البشر - فهو من منطلق الرحمة بهم، وإرادة الخير لهم، شرع وجوب دعوتهم إلى الإيهان به، عقيدة ونظاما، وترك ما يعبدون

(١) ياسين بن على: مرجع سابق، ص ١٨ .

(٢) رواه مسلم .

الإسلام يدعو للتعايش مع الآخر **﴿﴾** ويعتقدون، ورتب على ذلك فضلاً كبيراً، وأجرًا عظيمًا<sup>(١)</sup> قال الرسول ﷺ: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً لك من أن يكون لك حمر النعم»<sup>(٢)</sup>.

وقد أخرج البخارى في صحيحه حادثة تبين أن المقصد من الدعوة الخير للبشر، والرحمة بهم. فعن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودى يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلم». فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: «أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذى أنقذه من النار».

فالإسلام أراد أن يكون دخول غير المسلمين فيه عن قناعة ورضا تأميناً بأنه الحق المنزل من رب العباد جل جلاله، قال سبحانه: **﴿﴾** لَّا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۗ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿﴾ [البقرة].

وقال تعالى: **﴿﴾** آدَعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۗ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿﴾ [النحل].

ومن أروع الأحكام التى شرعها الإسلام مصداقاً لرحمته وإرادته الخير بالبشرية كلها، حكم (جوار العلم)، قال تعالى: **﴿﴾** وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿﴾ [التوبة].

وقال تعالى: **﴿﴾** وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿﴾ [يونس].

٣- الإسلام يقبل واقع الاختلاف فى الفكر بين البشر، وعدم إكراههم على التخلّى عن عقيدتهم ودينهم، ومن ثم فالإسلام يقبل مطلب الآخرين ممن هم على غير عقيدته ودينه بالعيش فى مجتمعه ودولته وبين المسلمين فى حمايتهم ورعايتهم، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

وقد يقبل الإسلام أن يعيش الآخر بين المسلمين دون أن يتخلّى عن دينه، ودون أن

(١) ياسين بن على: مرجع سابق، ص ٢٠.

(٢) أخرجه مسلم ك (الفضائل) ب (فى فضائل على بن أبى طالب رضي الله عنه / ٤ / ١٨٧٢ حديث رقم (٢٤٠٦).

يلزمه بذلك أو يشترط عليه ذلك، فهو بذلك يحافظ على خصوصيته، ويصون له كينونته المتميزة، أى يضمن له بقاءه آخرًا كما شاء لنفسه ذاك. وكل هذا موجود في صحيفة المدينة "ميثاق المدينة".

إن البشرية لم تعرف أعظم من المسلمين سماحة، يوفون بالعهد، ويصونون الأمان، ويحفظون الجوار، ويمسنون لمن اختار العيش بينهم.

### الجهاد في الإسلام:

الجهاد في الإسلام هو حرب مشروعة عند كل العقلاء من بنى البشر، وهى من أنقى أنواع الحروب من جميع الجهات<sup>(١)</sup>.

١- من ناحية الهدف. ٢- من ناحية الأسلوب.

٣- من ناحية الشروط والضوابط. ٤- من ناحية الإنهاء والإيقاف.

٥- من ناحية الأثار أو ما يترتب على هذه الحرب من نتائج.

وهذا الأمر واضح تمام الوضوح في جانبى التنظير والتطبيق في دين الإسلام وعند المسلمين، وبالرغم من الوضوح الشديد لهذه الحقيقة، إلا أن التعصب والتجاهل لحقيقة الدين الإسلامى الحنيف، والإصرار على جعله طرفًا في صراع وموضوعًا للمحاربة، أحدث لبسًا شديدًا في هذا المفهوم - مفهوم الجهاد - عند المسلمين، حتى شاع أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وأنه يدعو إلى الحرب وإلى العنف، ويكفى الرد على هذه الحالة من الافتراء، ما أمر الله به من العدل والإنصاف، وعدم خلط الأوراق، والبحث عن الحقيقة كما هى، وعدم الافتراء على الآخرين<sup>(٢)</sup>، حيث قال سبحانه: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران].

والحرب ظاهرة طبيعية شهدتها كل المجتمعات، والدول، والأزمان. ويقول كاتب غربى كبير "بكييت دى جو فينيل": "إن الحرب تبدو وكأنها أمر عارض في نظر ذاك الذى يكتفى بتأمل الزمن الذى يعيش فيه، إنها بالنسبة للإنسان الذى يعيش متأملًا مسار الأزمان

(١) على جملة: الجهاد في الإسلام دراسة تحليلية، بحث مقدم للمؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بعنوان: "حقيقة الإسلام في عالم متغير"، مرجع سابق، ص ٦٩٣.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٦٩٤.

الإسلام يدعو للتعايش مع الآخر **الذي تمارسه الدول**، والأمر غير الطبيعي هو ما يفعله الغرب بقيادة أمريكا من عقد تحالفات، ومحاولة جر العالم كله للدخول في الحرب، وهو أمر قد يسبب حربًا عالمية ثالثة لا تتحملها البشرية التي عانت ويلات الأولى والثانية.

إن الغرب يهاجم الإسلام، لتضمنه الجهاد المجهوم، حتى كرهه البشر في الإسلام، وأصبح هذا الدين الحنيف السمح في نظر العالم صنو الإرهاب والوحشية، ولقد تجاهل العالم أنه في الوقت الذي تهاجم فيه فكرة الجهاد في الإسلام تطور أمريكا أسلحة الدمار الشامل وتمتلك أرض المسلمين، وفي الوقت الذي يهاجم فيه القرآن لاحتوائه على آيات القتال ينشد الفرنسيون لامارسياز Lamarseillaise يدعون فيها للقتال ويتمنون فيها سبع مرات أن يتدفق دم غير طاهر في ساحتهم: <sup>(١)</sup>.

Aux armes citoyens !

Formez vos bataillons !

Marchons, Marchons

Qu'un sang impur Abreuve nos sillons !

والحقيقة أن الغرب يريد من المسلمين نزع السلاح، وتسليم البلاد والعباد له، فحتى القتال من أجل تحرير الأرض يعتبره الغرب من المسلمين إرهابًا، فقتال الشيشان للروس إرهاب. وقتال المسلمين أمريكا في أفغانستان إرهاب. وقتال المسلمين الأمريكان والإنجليز في العراق إرهاب. وقتال المسلمين اليهود الصهاينة في فلسطين إرهاب!! وقتال المسلمين الهندوس في كشمير إرهاب.

فماذا بقي إذن للمسلمين من قتال لا يسمى في عرف الغرب بالإرهاب، لم يبق إلا قتالهم لبعضهم بعضًا.

قال لورنس كورب، مساعد وزير الدفاع في عهد الرئيس الأمريكي السابق ريجان أثناء حرب الخليج في سنة ١٩٩٤: "لو كانت الكويت تنتج الجزر لما اكرثنا بالأمم"، وقال هاليداي: "ماذا يريد الناس في الغرب؟ الإجابة بسيطة، إنهم يريدون المال. وهذا ما تمثله العوامة، إنها تعنى تحويل العالم أجمع إلى سوق هائلة ومعمل إنتاج صناعي" <sup>(٢)</sup>.

(١) ياسين بن هل: مرجع سابق، ص ٢٨-٢٩.

(٢) المرجع نفسه: ص ٢٩.

والإسلام حين شرع القتال ضبطه بضوابط كثيرة، فيها السباحة والرحمة ما بين حقيقة القصد منه الذي هو خير البشرية وليس استعمارها ونهب خيراتها.

وهناك آيات قرآنية وأحاديث نبوية تحدثت عن هذه القضية، كان لها أهداف وشروط وضوابط وأساليب وآثار مترتبة على ذلك، منها ما يلي:

أولاً: القرآن الكريم:

١- ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ [البقرة] .

٢- ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ

وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩١﴾ [البقرة] .

٣- ﴿ قَالِ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ

عَنْهُمْ سَبْعًا تَمَّ ﴿١٩٥﴾ [آل عمران: ١٩٥] .

٤- ﴿ فَإِنْ اعْتَرَفْتُمُوهُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ

سَبِيلًا ﴿١٩٢﴾ [النساء] .

٥- ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۗ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٩٣﴾

[الأنفال] .

ثانياً: الأحاديث النبوية الشريفة:

عن سلمان بن بريدة عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً. ثم قال: "اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال: فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون

كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذي يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والغنىء شيء. إلا من يجاهدون مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت حصناً، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه...." (١).

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني أريد الجهاد فقال: «أخي والذاك؟» قال: نعم. قال: «ففيها مجاهد» (٢).

ويتضح من هذه الآيات والأحاديث أن هدف الحرب في الإسلام يتمثل في (٣):

أ- رد العدوان والدفاع عن النفس.

ب- الدعوة إلى الله، وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها.

ج- المطالبة بالحقوق المسلوقة.

د- نصره الحق والعدل.

ومن شروط وضوابط الحرب:

أ- لا قتال إلا مع المقاتلين، ولا عدوان على المدنيين.

ب- إذا جنحوا للسلم وانتهوا عن القتال فلا عدوان إلا على الظالمين.

ج- المحافظة على الأسرى ومعاملتهم المعاملة الحسنة التي تليق بالإنسان.

د- المحافظة على الحرية الدينية لأصحاب الصوامع والرهبان وعدم التعرض لهم.

لذلك فإن الجيوش الإسلامية عبر تاريخها، لم تغتصب النساء، ولم تقتل الأطفال، والنساء، والشيوخ، ولم تحرق البلاد كما يفعل الغرب اليوم.

أمثلة من تسامح الإسلام والمسلمين (٤):

أ- لقد ضرب صلاح الدين الأيوبي، المسلم الكردي، مثلاً عظيماً في سماحة الإسلام

(١) رواد مسلم في صحيفته: ك (الجهاد والسير) ب (تأثير الإمام الأمراء على البعث) ٣ / ١٣٥٦، رقم (١٧٣١).

(٢) أخرجه البخاري: ك (الجهاد والسير) ب (الجهاد بإذن الأيوبي) ٣ / ١٠٩٤ رقم (٢٨٤٢).

(٣) على جملة: الجهاد في الإسلام دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص ٧٠٠.

(٤) مصطفى سيسي: موقف الإسلام من غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية، بحث مقدم للمؤتمر العام التاسع للمجلس

الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة مرجع سابق، ص ٢٨٦-٢٨٧.

وقوته وعزته، وهذا رغم ما فعله الفرنجة الغربيون في بيت المقدس من قتل، واغتصاب، وحرق، وتدمير.

ب- طلب العادل من أخيه صلاح الدين افتداء ألف أسير على سبيل المكافأة عن خدماته له، فزهبهم له صلاح الدين، فأطلق العادل على الفور سراحهم؛ كما طلب البطريك (هرقل) إلى صلاح الدين أن يشفعه في عدد من الأرقاء حتى يحررهم من الأسر ويعتقهم، فوهب له سبعمائة أسير فأطلق سراحهم، كما أطلق خمسمائة آخرين تكريمًا (لباليان)، وأعلن أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وامرأة، فلما أقبلت نساء الفرنجة اللاتى افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، رق هن قلبه وأمر بإطلاق سراح أزواجهن، وآبائهن وأبنائهن.

ج- سمح (الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي) للنصارى الذين أسلموا كرها على عهد أبيه (الحاكم بأمر الله) أن يرجعوا إلى حظيرة دينهم القديم، كما أعاد هو نفسه إعمار كنيسة القيامة.

د- كان علماء المسلمين يجتمعون في أروقة المسجد الأقصى المبارك وكانت تدور بينهم وبين اليهود والنصارى حوارات ونقاشات ومناظرات علمية تدور أغلبها في علوم الكلام وأصول الفقه والخلاف، وكانت القدس - بحكم موقعها المتوسط بين الشرق والغرب - من البلاد التى تجمع فى التعليم بين الطريقة (القيروانية) التى تقوم على التنظير والتمثيل والطريقة (العراقية) التى تقوم على طلب الدليل.

هـ- سمح السلطان (محمود الثانى) لطائفة اللاتين بتوسيع ديرهم وإضافة غرف جديدة إليه، كما أذن لهم بتعمير القسم الذى يخصهم من كنيسة القيامة.

أنصف (إبراهيم باشا) شكاية تقدم بها سكان القدس من جباة الضرائب الذين كانوا يجبونها من الزوار، فأمسك بالمعينين ونفاهم إلى عكا والشام.

إن هذه الروح السمحة، والأخلاق النبيلة هى أخلاق الإسلام وآدابه فى التعامل مع البشر فى السلم والحرب، وهذا من الشواهد العظيمة الدالة على سماحة الإسلام مع المخالفين من أهل الأديان الأخرى، ولو كانوا خارج المجتمع الإسلامى، مما يدل على أن من كانوا داخله أولى بالإحسان.

ومن مظاهر الساحة (الإحسان) إليهم ما يلي:

أ- أبلغ مثال على ذلك عفو الرسول ﷺ عن أهل مكة يوم الفتح وقد تمكن منهم بعد إساءتهم له نحو عشرين سنة، لقي منهم فيها هو وأصحابه ﷺ ألوان العنف والمشقة، وصنوف العذاب والاضطهاد، وأنواع المحاربة، والمطاردة والقتل، والتشريد، ومع ذلك كله يعفو عنهم ﷺ عفواً عاماً في موقف فريد تعجز أمم الأرض وقادة العالم في القديم والحديث عن مثله، ولو على سبيل المحاكاة والتقليد<sup>(١)</sup>.

هل نقل التاريخ مثل ذلك؟ يدخل قائداً وأتباعه بلداً ما، منتصرين انتصاراً تاماً، ويستحضر الأتباع عناء سنين متطاولة من الغربة والتشريد والقتل والتعذيب إلى غير ذلك، وكثير منهم متعطش للانتقام وعدوهم في غاية الاستكانة والاستسلام، ومع ذلك يعفو القائد العام عفواً تاماً بكلمة واحدة فلا يسع الأتباع إلا التسليم والانقياد.

ب- ويوم الحديبية - قرية متوسطة، سميت بئر يسمى بئر الحديبية، تعرف اليوم باسم: الشمسيس، وهي غرب مكة خارجة عن حدود الحرم، وبينها وبين المسجد قرابة اثنين وعشرين كيلو، واختلفوا في يائها منهم من شددها ومنهم من خففها - يهبط ثمانون رجلاً من أهل مكة على النبي ﷺ وأصحابه من جهة جبل النعيم - موضع بمكة في الحل - ليأخذوهم على غرة، فيظفر بهم المسلمون، ويسألهم رسول الله ﷺ: "هل جئتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحداً أماتاً؟" فقالوا: لا، فخلى سبيلهم<sup>(٢)</sup>، وعفا عنهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٢٤]، وعد القرآن الكريم العفو عن هؤلاء الكفار المحاربين من الله تعالى على عبادة المؤمنين<sup>(٣)</sup>.

ج- ومن الساحة البالغة عفوهم ﷺ عن عمد قتله، وقد تمكن النبي ﷺ منه، فقد أهدت يهودية شاة مسمومة للنبي ﷺ فأكل منها، فقيل: ألا تقتلها؟ قال: «لا»<sup>(٤)</sup>، مع أنها صرحت لرسول الله ﷺ بقصدها قائلة له: أردت لأقتلك، وقد عفا ﷺ عن من أراد قتله مراراً<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، (٣/ ٣٥٥-٣٥٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٧/ ٣٥٥)، رقم الحديث (١٦٨٠٠).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (٧/ ٣٤٢).

(٤) رواه البخاري في صحيحه: ك [الجنة]، ب [قبول الهدية من المشركين]، (٢/ ٢٤١)، رقم (٢٦١٧). ومسلم في صحيحه:

ك (السلام)، ب (السم)، (٤/ ١٧٢١)، رقم (٢١٩٠).

(٥) هذا التصريح في رواية مسلم.

هذا، ومظاهر التسامح مع الآخر (الغرب) كثيرة، يشهد لها الواقع والتاريخ، فالمسلمون لم يكرهوا أحدًا قط على الدخول في الإسلام، وإن وجود المسيحيين في أسبانيا لدليل واضح على ذلك، فقد ظلوا آمنين على دينهم طوال القرون الثمانية التي ملك فيها المسلمون بلادهم، وكان لبعضهم مناصب رفيعة في بلاط خلفاء قرطبة، ثم إذا هُزّوا المسيحيين أنفسهم يصبحون أصحاب السلطان في هذه البلاد، فكان أول هم لهم أن يقضوا قضاء تامًا على المسلمين.

وهذه شهادة بعض المؤرخين والمستشرقين من الغرب:

- يقول لوبون: "إن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة"<sup>(١)</sup>.
- يقول أستيفن سن: "إن السلطان قد سمح لعدد كبير بالرحيل دون فدية"<sup>(٢)</sup>، ويقصد بالسلطان هنا: صلاح الدين الأيوبي.
- ويقول أستانلي لين بول: "إن السلطان قد قضى يومًا من أول بزوغ الشمس إلى غروبها، وهو فاتح الباب للعجزة والفقراء تخرج من غير أن تدفع الجزية"<sup>(٣)</sup>.
- يقول المؤرخ الإنجليزي (مل): "ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى انطاكية المسيحية فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم، فطردهم فساروا على وجوههم في بلاد المسلمين، فقولوا بكل ترحاب"<sup>(٤)</sup>.
- خرج البطريك (ستانلي) بأمواله وذخائره الكثيرة دون أن يصرف منها شيئًا في فداء الفقراء والمساكين، ف قيل لصلاح الدين: "لم لا تصادر هذا فيما يحمل، وتستعمله فيما تقوى به أمر المسلمين؟"، فقال: "لا آخذ منه غير العشرة دنائير ولا أغدر به"، وفي ذلك يقول ستانلي لين بول: "قد وصل الأمر إلى أن سلطانًا مسلمًا يلقي على راهب مسيحي درسًا في معنى البر والإحسان"<sup>(٥)</sup>.
- يقول صاحب كتاب "قصة الحضارة": "إن أهل الملل الأخرى نعموا في ظل الإسلام بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرًا في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم"<sup>(٦)</sup>.

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب، مرجع سابق، ص ١٢٨.

(٢-٤) ياسين بن علي: مرجع سابق، ص ٣٠.

(٥) ياسين بن علي: مرجع سابق ص ٣١.

(٦) انظر: حضارة العرب (ص ١٥١، ٢١٥)، معاملة غير المسلمين في الإسلام - عدة بحوث أصدرها المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية: قصة الحضارة (١٣ / ١٣٠).

وشهادة المنصفين من غير المسلمين على ساحة الإسلام مع أهل الأديان الأخرى كثيرة جدًا .

### عدل وإنصاف الإسلام:

العدل في القرآن الكريم عماد الخير والصلاح وعماد النظام وتمام الملك والسلطان، فلا نظام إلا بالعدل ولا أمانة إلا بالعدل ولا شرائع إلا بالعدل ولا حكمة ولا رحمة إلا بالعدل، فالعدل هو غاية الغايات، وهو الأساس أو العماد الذي أنشأ الله عليه الكون، ليس في الإنسان مع الإنسان فقط، وإنما في الإنسان مع نفسه، وفي الإنسان مع ربه، وفي الإنسان مع أسرته، وفي الإنسان مع أمته، وفي الإنسان مع البشر جميعًا، وفي الإنسان مع كل ما في الكون من نبات وحيوان وجماد، هذه مكانة العدل في الإسلام. وكثيرًا ما حكى القرآن عن مصير الأمم التي حرمت من إدراك العدل وتفشى فيها الظلم حتى أدركها الفناء والهلاك. أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢] فهو أخذ بالإنسان عما جرت به عاداته من التأثير بصلات القربى في المحاباة للأقرباء والظلم لغيرهم<sup>(١)</sup>.

وإذا تتبعنا معاني (العدل) عبر مختلف مواضع وروده في القرآن الكريم من خلال كتب التفسير أمكن توزيعها على المحاور التالية:

#### في العقيدة:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام]. أى مع ان الله سبحانه وتعالى هو وحده خالق السموات والأرض والظلمات والنور فإن قومًا من الناس يشركون ويتخذون له الأنداد وينسبون لها ما ليس لها، ومن ذلك أن تنسب الأفعال إلى الأسباب مع نسيان فعل الله الذي سخر الأسباب. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدَلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

(١) أحمد عامر: مقومات النظام السياسي الإسلامي وعلاقته مع الآخر، سلسلة فكر المواجهة (٢) ندوة: الإسلام وحوار الحضارات مرجع سابق، ص ٧٦، ٧٧.

في الحكم:

قال تعالى ﴿ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الاعراف: ١٨٥] . أى: يحكمون، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨] ، ﴿ وَأَمْرٌ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى]. وهذه الآيات وسواها ناطقة بالرد الصريح على أولئك الذين لا يفتنون بلحون على أن القرآن لم يتضمن معانى الحكم.

في القضاء:

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨] ، أى: هذا أمر للقضاة والحكام بالتسوية بين الناس عامة ، بين المؤمن والكافر والقريب والبعيد.

في الشهادة:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، ﴿ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كِتَابٌ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ، أى: بالقسط والحق فيكون قوله مساويًا للحقيقة بلا زيادة ولا نقصان.

في شؤون الأسرة:

قال تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ ﴾ [النساء: ٤] . ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ﴾ [النساء: ١٢٩] . أى: إذا كانت التسوية التامة بين الزوجات صعبة المنال، فسددوا وقاربوا ولا تركوا الميزان يختل جملة ، بل اعدلوا فيما أنتم قادرون على العدل فيه ...

في الصلح بين المتخاصمين:

قال تعالى: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت وَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ [الحجرات: ٩] .

في الصدق واستواء السر مع العلن وترك الظلم والتزام الإنصاف أبداً:

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِنِجْتٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٥﴾ [النحل].

إن معاني العدل في هذه الآيات تدور حول معنى أساسى هو التزام الحق، وإتيان كل ذى حق حقه، ويدخل في ذلك معاني التسوية والمساواة، فالعدل عدم بخس الناس أشياءهم ومحاولة التسوية<sup>(١)</sup>.

وحيثما نادى بوش الصغير بعد أحداث ١١ / ٩ / ٢٠٠١ م لحرب صليبية، وحينما أعلن شرودر المستشار الألماني بأن الهجوم على أمريكا هو هجوم على الحضارة الغربية التى افتخر بها، وأشاد بمحاسنها كحقوق الإنسان وحرية الأديان التى لا توجد فى البلدان الإسلامية، وحينما قال برلسكونى رئيس الوزراء الإيطالى بأن الحضارة الغربية أعلى من الإسلام وأرقى، هل قالوا قولهم هذا إيماناً بنظريات النسبية، والتعددية، التى يتبجح بها الغرب ويدعو المسلمين إلى تبنيها، فهى ليست إلا نظريات مثالية لا واقع لها، فهى عبارة عن حبر على ورق يؤولونها كما يشاؤون، يقول المفكر المعروف إيفرنغ فتشر: إن لشعوب النصرانية كل مسوغ فى أن تكون خجلة من عدم تسامحها الدينى والأيدىولوجى فى العصور السالفة، وقيناً ليس لهم الحق فى أن يشيروا بأصبع الاستهجان إلى الآخرين، ونحن بدورنا نقول: ما الفرق بين العصور السالفة واليوم؟<sup>(٢)</sup>، ما الفرق بين الحرب الصليبية التى أسالت دماء المسلمين واليهود أنهاراً فى بيت المقدس (أورشليم) وبين الحرب الصليبية التى أشار إليها بوش الصغير فى أفغانستان؟

ما الفرق بين احتلال مصر والجزائر على يد الإنجليز والفرنسيين، وبين احتلال العراق فى سنة ٢٠٠٣ م على يد الأمريكان والإنجليز؟

ما الفرق بين محكمة التفتيش المسيحية الإسبانية التى نصبت للمسلمين واليهود وبين سجن (معتقل) "غوانتانامو" الذى يعامل فيه المسلمون كالحوانات؟<sup>(٣)</sup>.

(١) راشد الغنوشي: حقوق المواطنة، حقوق غير المسلم فى المجتمع الإسلامى، من سلسلة قضايا الفكر الإسلامى (٩)، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ميرنن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط ٢، ١٩٩٣، ص ٣٧-٣٨.

(٢، ٣) ياسين بن على: مرجع سابق، ص ٣٥.

وهل من العدل والإنصاف والتعددية الثقافية أن تراقب المساجد ويقهر الأئمة فيها ويضغط عليهم، وتمنع الكثير من المدارس الغربية المسلمات المحجبات من دخولها إلا بعد نزع اللباس الشرعى؟

وهل من العدل والإنصاف أن تمنع مؤسسات وحركات إسلامية سياسية فكرية وترفض العنف من النشاط في بعض دول الغرب؟

وهل من العدل والإنصاف أن تغلق بعض الجمعيات الخيرية، وتصادر أموالها بتهمة مساعدة الإرهاب؟

وهل من العدل والإنصاف واحترام الحضارات، أن تغير مناهج التعليم في بلاد المسلمين كباكستان، بما يناسب الأمريكان؟

فمتى يكون الغرب عادلاً ومنصفاً؟ عندما يبدل المسلمون دينهم، ويعتقدون العلمانية والرأسمالية، أى: عندما يتحول المسلمون إلى غربيين، هل هذا هو العدل؟

ولقد ضرب الإسلام أروع الأمثلة في العدل، والإنصاف مع أعدائه، منها ما يلي:

١- أحد المسلمين سرق درعاً، وألقاها في بيت يهودى ليسلم من تبعتها ويؤخذ اليهودى بها، وهم رسول الله ﷺ أن يعذر المسلم بسبب ما ظهر من قرائن الأحوال المادية الدالة على سرقة اليهودى للدرع، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَافِيينَ حَصِيماً ﴾ [النساء: ١٠٥].

وهذا العدل وإيجابه مع العدو على النحو الوارد في الآية لا يرقى إليه نظام من نظم الأرض على مر العصور، فها هو الوحي ينزل من السماء مبرقاً يهودياً يكفر بالله تعالى، متوعداً بالغضب واللعنة من رب العالمين. وأن الإسلام يفرق بين وصف شخص ما بالكفر، وبين التعامل معه، فالكافر له الحق في أن يعامل بعدل وإنصاف، ليس ذلك فحسب بل بالبر والإحسان في أحوال كثيرة.

٢- وقد بلغ الإسلام مع أعدائه في الوفاء بعهودهم مبلغاً عظيماً، ولو كانوا في وقت حرب وقتال:

• عن أبى رافع رضي الله عنه قال: بعثنى قريش إلى النبى ﷺ قال: فلما رأيت النبى ﷺ وقع في قلبى الإسلام، فقلت: يا رسول الله، لا أرجع إليهم، قال: "إنى لا أخيس بالمهد، ولا

الإسلام يدعو للتعايش مع الآخر **أحبس البرد، ارجع إليهم فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع**"<sup>(١)</sup>، أي: لا أنقض العهد، ولا أحبس الرسل.

• بعث مسيلمة الكذاب (مسيلمة بن ثمامة) رسولين إلى النبي ﷺ، فلما أتياه قال لهما ﷺ: "أنشهدان أني رسول الله؟" قالوا: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال النبي ﷺ: "آمنت بالله ورسوله، لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما"<sup>(٢)</sup>.

وهذا في غاية العدل مع الأعداء، فلم يحبس رسول الله ﷺ أباً رافع، وقد أسلم، لأنه مرسل من قبل قريش، وليس من العدل ولا الوفاء بالعهد حبس الرسل، وكان ذلك معروفاً في ذلك الزمان، ولم يقتل رسولاً مسيلمة الكذاب، ولم يؤذهم مع الكفر أمامه ﷺ.

٣- تحريم ظلمهم:

وهذا من مقتضيات العدل ولوازمه فلا يحل ظلم الآخر - غير المسلم - في نفس أو مال أو غير ذلك، ورهب النبي ﷺ المسلمين من ذلك ترهيباً عظيماً، فقال ﷺ: "ألا من ظلم معامداً، أو انتقضه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة"<sup>(٣)</sup>.

فمن تعدى على معاهد، أو عابه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فإن النبي ﷺ يحاجه يوم القيامة ويغالبه، إذ كيف يظلم من هو في ذمته ﷺ، ولم يهمل المسلمون على مر العصور وصية نبيهم ﷺ في أهل الذمة، وحاشاهم أن يجتمعوا على مخالفته ﷺ في ذلك، وقد شهد المنصفون بامثال الصحابة رضوان الله عليهم ما أمرهم به نبيهم ﷺ من العدل والإنصاف، وعدم الظلم لأهل الذمة.

يقول لويون: "وعامل عمرو بن العاص الفلاحين بها لم يعرفوا من العدل والإنصاف، منذ زمن طويل"<sup>(٤)</sup>.

### الإسلام وحسن العشرة:

يعد حسن العشرة مظهر من مظاهر التعايش المشروع الذي لا يمكن أن تستقيم الحياة

(١) رواه أحمد في مسنده: (٢٨٢ - ٢٨٣)، حديث رقم (٢٣٨٥٧)، وأبو داود في سننه: ك (الجهاد)، ب (في الإمام يستجن به في العهد) رقم (٢٧٥٨)، ص ٤٠١.

(٢) رواه أحمد في مسنده: (٣٠٦ / ٦)، حديث رقم (٣٧٦١).

(٣) رواه أبو داود في سننه: كتاب (الخراج الفئ - والإمارة)، باب (في نمشير أهل الذمة)، حديث رقم (٣٠٥٢)، ص ٤٤٧.

(٤) غوستاف لويون: حضارة العرب، مرجع سابق، ص ٢١٥.

بدونه ، والحركة من طبيعة البشر، ولولاها ما عمروا سطح هذا الكوكب، وفي تحركهم يحملون معهم ولاءهم لأوطانهم وعقائدهم ، ومن أجل ذلك كان التعايش مع التباين والتعددية الثقافية هو الأساس<sup>(١)</sup>، وفي المجتمعات الإسلامية منذ عصر النبي ﷺ إلى اليوم وأن حسن العشرة أمر به الإسلام أتباعه أن يسلكوه مع بعضهم البعض، ومع غيرهم من الملل الأخرى، لا سيما إذا كان غير المسلم (الأخر) من أهل الذمة، ودلائل هذا المظهر يصعب حصرها، فهو على سبيل الاختصار ما يلي:

#### ١- عيادة مرضاهم:

عن أنس ﷺ أن غلامًا يهوديًا كان يخدم النبي ﷺ مرض، "فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعده عند رأسه، فقال له: «أَسْلِمُ»، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: "الحمد لله الذي أنقذه من النار"<sup>(٢)</sup>، ولا تنحصر زيارة الأخر - غير المسلم - في تأليفه على الإسلام، فإن ذلك يختلف باختلاف المقاصد، وزيارة الخادم وإن كان كافرًا من حسن العشرة<sup>(٣)</sup>.

#### حسن جوارهم:

وهذا الحق لغير المسلم في المجتمع الإسلامي وغير الإسلامي، مستأمنًا كان أو ذميًا، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا<sup>ط</sup> وَيَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَيِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ<sup>ك</sup> إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء]. وقد فسر الجار الجنب في الآية باليهودي والنصراني. والإحسان قد يكون بمعنى حسن العشرة، وكف الأذى والمحاماة دونه.

#### ٢- قبول هديتهم والإهداء إليهم:

وهذا من مظاهر حسن العشرة، ولا يخفى أثر الهدية في إشاعة الألفة وتخفيف أثر العداوة، أو إزالتها.

(١) معاملة غير المسلمين في الإسلام، ص ٨٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ك (إذا أسلم الصبي فبات هل يصل عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١ / ٤١٦)، رقم الحديث (١٣٥٦).

(٣) ابن حجر: فتح الباري (٣ / ٢٨١).

وأمثلة قبول النبي ﷺ هدايا المشركين كثيرة منها:

أ- قبول هدية ملك أيلة، وكان نصرانياً: "فقد أهدى للنبي ﷺ - بغلة بيضاء وكساه برداً"<sup>(١)</sup>.

ب- كما أهدى أكيدر دومة إلى النبي ﷺ جبة سندس فقبلها"<sup>(٢)</sup>.

ج- كما قبل النبي ﷺ هدية المقوقس صاحب مصر"<sup>(٣)</sup>.

د- وقبل هدية عظيم فدك"<sup>(٤)</sup>.

هـ - وقبل من اليهودية شاة، فأكل منها، وكانت مسمومة"<sup>(٥)</sup>.

وقبول هدايا غير المسلمين - أهل الذمة - لم يكن خاصاً بالنبي بل أذن لأصحابه في قبول الهدايا من المشركين والإهداء إليهم .

٤- تحيتهم ورد السلام عليهم:

وهذا - أيضاً - من حسن العشرة، والبر، والقسط الذي شرعه الله تعالى مع الآخر.

وهل يشرع للمسلم أن يرد على الذمي بقوله: وعليكم السلام، أم يكتفى بقوله: وعليكم فقط؟

فإذا سلم الذمي سلاماً واضحاً بينا قال فيه: السلام عليكم، فإن المشروع أن يرد المسلم بقوله وعليكم السلام: وذلك أن النبي ﷺ بين في حديثه سبب قصر الرد على قول: وعليك فقط، وهو أنهم كانوا يتعمدون في تحيتهم لى ألسنتهم بالتحية، ويجيون النبي ﷺ بما لم يجبه به الله تعالى، ويقولون: السام عليك"<sup>(٦)</sup>، فأمر الرسول ﷺ بالاختصار على قول: وعليك، للسبب المذكور، فقال ﷺ: "إذا سلم عليكم اليهود فإنها يقول أحدهم: السام عليك، فقل: وعليك"<sup>(٧)</sup>. السام بمعنى: الموت.

(١) رواه البخارى فى صحيحه: ك (الزكاة)، ب (خوص التمر)، (١/ ٤٥٩)، رقم (١٤٨١). أيلة: مدينة على ساحل خليج العقبة، وتعرف اليوم باسم العقبة.

(٢) صحيح البخارى: ك (الهدية)، ب (قبول هدية المشركين)، (٢/ ٢٤٠ - ٢٤١)، رقم (٢٦١٥ - ٢٦١٦).

(٣) أخرجه الهيمى فى مجمع الزوائد ٤/ ١٥٢ طبعة: دار الكتاب العربى - بيروت ١٤٠٧هـ.

(٤) سنن أبى داود: ك (الخروج والفرء والإمارة)، ب (فى الإمام يقبل هدايا المشركين)، رقم الحديث (٣٠٥٥)، ص ٤٤٧.

(٥) أخرجه البخارى: ك (الهدية) ب (قبول الهدية) ٢/ ٩٢٢ رقم (٢٤٧٤).

(٦) أنظر: صحيح البخارى: (٤/ ٩٥)، رقم الحديث (٦٠٤٢)، أنظر: صحيح مسلم: (٤/ ١٧٠٥)، رقم الحديث (٢١٦٣).

(٧) رواه البخارى فى صحيحه: ك (الاستئذان)، ب (كيف الرد على أهل الذمة بالسلام)، (٢/ ١٤٢)، رقم الحديث (٦٢٥٧).

لذا لو تحقق المسلم من أن الآخر - غير المسلم - قال: السلام عليك، فالمشروع أن يرد بقوله: وعليكم السلام. فإن هذا من باب العدل، والله أمر بالعدل والإحسان، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝﴾ [النساء].

مجادلتهم بالتي هي أحسن:

لا بد من الحوار بين أتباع الدين الواحد، فضلاً عن أتباع الأديان المختلفة وهذا أمر لا مانع فيه.

والإسلام - حرصاً منه على التعايش الإيجابي بين المسلمين والآخر - أمر أن يكون هذا الحوار بالتي هي أحسن .

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لِهَمِّ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝﴾ [النحل: ١٢٥].

والمجادلة بالتي هي أحسن هي: الحوار الإيجابي البناء، والحوار أسلوب أصيل من أساليب الدعوة الإسلامية، وللحوار البناء دوره الكبير في تأصيل الموضوعية، ورد الشبهات، وبيان الحق.

من آداب الحوار وضوابطه:

وهنا نتطرق إلى آداب وضوابط الحوار التي تمثل مظهرًا من مظاهر حسن العشرة مع الآخر، والابتعاد بالحوار عن السلبيات التي تجعله ضعيف الفائدة، والتي منها:

١- وضوح المنطلق<sup>(١)</sup>:

أي يجب أن تكون منطلقات الحوار واضحة لدى الطرفين لاسيما الطرف المسلم، ومن ذلك:

أ- ألا يكون المنطلق عند الطرف المسلم تسجيل موقف الغلبة على الطرف الآخر في ميدان السباق، بل ينطلق من محبة الخير له، قاصداً بيان الحق بالحجة والبرهان.

(١) أحمد جودة السيد: دعوة غير المسلمين إلى الإسلام في البلدان العربية (الواجب والواقع)، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، فرع المنصورة، ١٤٢٦هـ / ١٤٢٧هـ، ص ٢٤٧-٢٤٨.

ب- أن ينطلق من موقف قوة وثبات، لا ضعف وتردد.

ج - الانطلاق من المبادئ والأصول المشتركة، حيث هناك مبادئ مشتركة مع أتباع الأديان الأخرى، لاسيما اليهودية والنصرانية كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر من حيث العموم دون التفاصيل، كما أن المبادئ المشتركة عند المدعوين من مقتضيات الفطرة ومنها حسن العدل، والصدق، وقبح ضدهما، فينبغي أن يكون منطلق الداعية في حوارها مع أتباع الأديان الأخرى، هو الاعتماد على مقتضيات الفطرة ونقطة الوفاق في أصل العقيدة، وهذا يجعل الخطاب الدعوى أقوى وأنفذ، وأحكم.

وينبغي الحذر من عرض هذه المبادئ المشتركة بطريقة توهم عامة المسلمين، وتوقعهم في الشك والاضطراب فيما يعتقدون من ثوابت شرعية، مثل: بطلان كل دين سوى الإسلام، وعموم بعثته ﷺ لجميع البشر، ونحو ذلك، ولذا ينبغي اختيار موضوعات الحوار بدقة بالغة.

## ٢- تحديد الغاية من الحوار وتوضيحها في نتائج الحوار<sup>(١)</sup> :

ينبغي التركيز على تلك الأهداف في نتائج الحوار وإلا كان قليل الفائدة ؛ ولذا كان للأنبياء في حوارهم هدف واضح مع أقوامهم وهو: دعوتهم إلى الله تعالى، واستنقاذهم من النار. وقد قص القرآن الكريم علينا حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه في سورة الأنعام، وجاءت نهاية الحوار هكذا: ﴿ فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومِ رَبِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ [ الأنعام ]، وإبراهيم عليه السلام راعى في الحوار الكثير من حيث:

المحافظة على صلته بالخصوم، وتقريبهم إليه بقوله: ﴿ يَنْقُومِ رَبِّي أَمَلًا فِي كَسْبِ إِيْمَانِهِمْ.

أعلن الحكم على عبادتهم للكواكب وهو: أنها شرك ﴿ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

أعلن استنكاره لهذا الشرك ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

(١) أحمد جودة السيد: مرجع سابق، ص ٢٤٩.

بين لهم البديل الصحيح الذى يجب أن يتجهوا إليه بدل الشرك ، وهو الإيثار بالله:

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام].

بين لهم قدرًا كافيًا من مزايا الإله الواحد الذى يدعوهم إليه، ويكفى أنه "فطر السموات والأرض".

يخشى إبراهيم عليه السلام اللبس والتأويل كقولهم: نعبد الإله الذى تدعوننا إليه ونعبد معه ألهتنا، فيقول لهم: إنه يأبى الشرك مع الله: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . ويجب أن تكون غاية كل حوار مع الآخر هى الدعوة إلى الإسلام فى أى جانب من جوانبها.

### ٣- أهلية المحاور:

المسلم المحاور يندرج تحت أهليته أمور، منها ما يلي:

أ- أن يكون قوى الحججة، صادق الانتفاء، متين الديانة، واسع العلم، متفقهًا لفنونه وأساليبه.

ب- أن يلتزم بأداب الحوار فى الإسلام فى جميع مراحل الحوار. ومن هذه الآداب:

• حسن المخاطبة، وطيب القول قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣] ، ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣] ، ومدح المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ [الحج].

• البعد عن السب، وجرح المشاعر، والاستخفاف بالمحاور، وعدم التعالى عليه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. وقال تعالى - لموسى وهارون - عليهما السلام: ﴿ آذِهِبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ ﴿ فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه] .

• استعمال العبارات اللائقة، والبعد عن العبارات المنفرة: وعلى هذا جاءت نداءات القرآن الموجهة للآخر - لغير المسلم - مثل: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾ [النساء: ١٧٠] ، و﴿ يَنْقُومِرِ ﴾

[الأنعام: ٧٨]، و﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ﴾ [المائدة: ١٥]، و﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [الجمعة: ٦].

• تحمل فظاظه المخاطب، ودفع إساءته بالإحسان:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت].

٤- التزام الموضوعية وعدم الخروج عن مجال النقاش:

يتحقق ذلك بتوافر آداب الحوار السابق ذكرها بالبند (٣)، وغير ذلك من الآداب، والضوابط التي تجعل الحوار مثمرًا وفعالًا.

هذا، وهناك مسائل أخرى تتعلق بحسن العشرة مع الآخر - الغرب - أو غير المسلمين مثل:

أ- إجابة دعوتهم للطعام: قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة].

ب- تعزيتهم، وشهود جنازتهم.

ج- معاملتهم بالبيع والشراء ونحوهما.

وغير ذلك مما ينبغى على الدعاة الوقوف عليه؛ لأنه جانب مهم من جوانب العلاقة بين الإسلام والآخر (الغرب) أو غير المسلمين.

الإسلام يدعو إلى السلام:

• معنى السلام في اللغة<sup>(١)</sup>:

السلام مصدر من كلمة "سلم" وهي بمعنى برئ وخلص من العيوب، وتأتى بمعنى الصلح والتسليم، وتأتى بمعنى التحية. والسلام بمعناه اللغوي العام: الأمن والطمأنينة

(١) عبد العزيز الحياط: الإسلام دين السلام...، ص ٣٦٦، بحث مقدم للمؤتمر العاشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، بالقاهرة، مرجع سابق.

وسيادة المحبة والوفاء والمودة والتعاون.

• معنى السلام في الإسلام<sup>(١)</sup>:

اعتنى الإسلام بالسلام، فاسم الإسلام مشتق من السلام، فالإسلام دين المحبة والتعاون والاطمئنان والعدالة والأخوة والمساواة، دين الانقياد والطاعة لله خالق الأرض والسماء، وكلمة السلام تعني: التسليم والاطمئنان، ولهذا ذكرها القرآن الكريم مع ما يشتق منها أكثر من ثمانين مرة في أكثر من ثمانين آية في مناسبات مختلفة بمعانيها المختلفة بحسب المواقف، ولكنها تصب في المعنى الأساسي لها: صفاء قلب، وتعاون إنساني، وهدوء بال، وطمأنينة نفس، وذكر لفظة السلام (٤٢) مرة. والمسلمون كرمهم الله بهذا الاسم، قال تعالى: ﴿مَلَأَ أَبْيُكُمُ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٨٨].

قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ [البقرة].

الإسلام دين سهاوى، وهو دين السلام، وماخوذ من أسائه تعالى: (السلام)، وقد جعل الله تحية الإسلام السلام. والمسلم في نظر القرآن هو من أسلم وجهه وقلبه وحياته كلها لله واتبع شرعه، وآمن باليوم الآخر، والملائكة، والكتب، والمرسلين دون استثناء أو تمييز. وقد وصف الرسول (ﷺ) المسلم بقوله: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"<sup>(٢)</sup>. فهذا دليل على أن الإسلام دين السلام. والقرآن الكريم وضع قاعدة تعد الدستور الأساسي في معاملة المسلمين لغيرهم من الناس، فقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿٣﴾ [المتحنة].

فالآية واضحة تمامًا في تقرير العلاقة بين الإسلام والمسلمين والآخر (غير المسلمين)، إنها علاقة قائمة على أمر أعظم من العدل - الذى هو إعطاء كل ذى حق حقه .

(١) المرجع السابق: ص ٣٢٦.

(٢) أخرجه البخارى: ك (الإيمان) ب (اسلم من سلم المسلمون) ١ / ١٣ رقم (١٠).

وقد وردت تحية السلام بعبارات مختلفة نص القرآن عليها وبينت السنة الشرعية بعضها، ففي القرآن الكريم مثلاً:

- ١- ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا ﴾ [الأعراف: ٤٦].
- ٢- ﴿ سَلِّمُوا عَلَيْنَا بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد: ٢٤].
- ٣- ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان].
- ٤- ﴿ آدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ ﴾ [الحجر].
- ٥- ﴿ وَسَلِّمُوا عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصفات].
- ٦- ﴿ قُلْنَا يَنْتَازِكُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء].
- ٧- ﴿ قَدْ جَعَلْنَا لَكُم بِعَايَةِ رَبِّكَ وَالسَّلَامِ عَلَيَّ مِنْ أَتَّبَعِ أَهْدَىٰ ﴾ [طه].

ووردت في النصوص النبوية الشريفة مثل:

- ١- السلام عليكم ورحمة الله.
- ٢- السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. المسلمون يقولون ذلك في تشهدهم في صلواتهم خمس مرات كل يوم.
- ٣- سلام على من اتبع الهدى.
- ٤- سلام على من آمن.
- ٥- قال النبي ﷺ لأهل العقبة في الميثاق الذي عقده بينه وبينهم في نهاية الكتاب: (سلام عليكم)، فخطب غير المسلمين بالسلام.

الإسلام يدعو إلى الأخوة الإنسانية:

قرر الإسلام وحدة البشر، وأعلن الإخوة الإنسانية بينهم، وأن الناس جميعاً ولدوا من أب واحد، وأم واحدة، وأنهم سواسية لا فرق بينهم لا في العرق ولا في اللون ولا في البلد، ودعا إلى نبذ التعصب العرقي أو الديني أو الطائفي، ولذلك كان ديناً عالمياً، ليس منغلِقاً على شعب من الشعوب، أو على زمن من الأزمان، وقرر ذلك نصوصاً في القرآن

الكريم والسنة النبوية ، وجعل الإيثار بها جزءاً من عقيدة الإسلام، وأوجبها عملاً<sup>(١)</sup> .  
 وأول هذه النصوص في الأخوة الإنسانية قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الحجرات]. وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَنَسَّ مِنْهَا طَائِفًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء] ، فآية الحجرات دلت على إتحاد أفراد الإنسان من حيث الحقيقة الإنسانية، ونفت الفرق بينهم من جهة انتهاء تكون كل واحد منهم إلى أب وأم فلا ينبغي أن يتكبر أحدهما على الآخر، ولا يتكبر إلا بالتقوى<sup>(٢)</sup> .

كما أن المقصود بالتعارف استقامة تواصل البشر ومعاملتهم، إذ لا يتم ائتلاف ولا تعارف ولا تعاون ولا تعاضد من غير تعارف، حتى لا يستبعد بعضهم بعضاً، ويستعلي قوم على قوم فينجروا إلى ظهور الفساد في البر والبحر وهلاك الحرث والنسل فينقلب الدواء إلى داء<sup>(٣)</sup> .

وفي هذا تحقيق معنى الأخوة الإنسانية الذي أكده الرسول ﷺ بقوله: «إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعمظها بالآباء والأجداد، الناس لأدم وآدم من تراب»<sup>(٤)</sup> . وقوله ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط»<sup>(٥)</sup> .

فلا تفريق من حيث الإنسانية بين جنس وجنس، ولا بين مسلم ونصراني، ولا يهودي ولا وثني ولا صاحب دين آخر. ففضى الإسلام بذلك على التعصب للأجناس أو الألوان أو غيرها، وإنما تعايش مع المجموعة الإنسانية في إخوتها الرائعة.

وكانت الممارسة والتطبيق واضحة فيما كان عليه المسلمون في معاملاتهم وتعاطفهم وإخوتهم.

فكان الناس - ولا يزالون - يتحاربون في كل عصر، وفي كل صقع، وكلما تقدمت

(١) عبد العزيز الحياط: مرجع سابق، ص ٣٢٤.

(٢) عبد العزيز الحياط: مرجع سابق، ص ٣٢٥.

(٣) روح المعاني للألوسي ٧ / ١٩٤ طبعة: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٤) أخرجه الترمذي: ك (المناقب) ب (في فضل الشام واليمن) ٥ / ٧٣٥ حديث (٣٩٦٥).

(٥) محمد بن عيسى الترمذي السلمي: سنن الترمذي، ج ٥ ، ص ٧٣٥١ ، دار إحياء التراث العربي ، ج ٥ ، بيروت ، د.ت .

الحضارة بهم تَفَتَّنُوا في صنع عتاد الحرب والتخريب والتدمير، يقوضون بمخترعات العلم والحضارة ما أبدع العلم والحضارة، ويهدمون اليوم ما بنت الأجيال من قبل. وهم لا يريدون من الحرب إلا توسيع الرقعة - الغرب - ويسط السلطان، وإرواء الظمأ إلى الشهرة والمجد، واستعباد الضعيف، والاستئثار بخيرات بلاده.

وكثير ما علت صيحات الدعوة إلى السلام، لكنها كانت تذهب دخاناً في الهواء.

وليس صراع العالم اليوم - وهو صراع يهدد البشر بالانقراض، ويعرض الحضارة للدمار - ناشئاً عن بواعث سامية، أو غايات راقية، وإنما هو صراع مبعثه وهدفه الغلب والسيطرة والاستئثار بالسلطان والخيرات<sup>(١)</sup>.

أما الإسلام فهو دين سلام، فالإسلام يدعو إلى المثل الأعلى في جميع الصلوات والمعاملات، فإن لم ينجح المثل الأعلى تمشي الإسلام مع الواقع.

وحسبنا هنا شهادة (السير توماس أرنولد) في قوله: "تصدعت أركان الإمبراطورية العظمى، وتضعفت قوة الإسلام السياسية، ولكن ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع". وعندما خربت جموع المغول بغداد (١٢٥٨ م) وأغرقوا في الدماء مجد الدولة العباسية (١٣٢ هـ - ٦٥٦ هـ)، وعندما طرد فرديناند - ملك ليون وقشتالة - المسلمين من قرطبة (١٢٣٦ م)، ودفعت غرناطة - آخر معاقل الإسلام في إسبانيا - الجزية للملك المسيحي، في هذا الوقت كان الإسلام قد استقرت دعائمه، وتوطدت أركانه في جزيرة سومطرة، وكان على أهبة أن يحرز تقدماً ناجحاً في الجزر الواقعة في بلاد الملايو<sup>(٢)</sup>.

وقد بنى القرآن الكريم دعوته إلى الإصلاح بين الناس كافة، حيث هم إخوة في الإنسانية؛ لأنهم من أب وأم واحد. تباركت يارب، لقد هديت عبادك إلى أعظم نظام لصون السلام وحفظ الأمن، والفصل العادل بين الأمم المتنازعة.

وهذا هو مجلس الأمن الحقيقي، مجلس الأمن الذي يستمد قوته من الحق والعدل ولا يراعى شيئاً غير الحق والعدل، مجلس الأمن الذي شكله الخالق، فهو يسعى إلى الخير، ويقر السلام على الأرض، ويعتز برهبة الروحية الدينية.

وهيئات أن يصل إلى شيء من ذلك ما قام على أهواء الأمم من جماعات مثل (عصبة

(١) المرجع السابق: ص ١٠٣.

(٢) أحمد محمد الحوفي: مرجع سابق ص ١٠٦.

الأمم) و (هيئة الأمم المتحدة) و (مجلس الأمن) لأنها جماعات خيبت الآمال كلها، فليس لها من حقيقتها إلا اسمها، وهدف كل دولة في هذه الجماعات أن ترعى مصالحها، وأن تحتفظ بنفوذها، وأن تحايى من يوادها، وتضع العراقيل في طريق من تخشى قوته - مثل ما يحدث في هذه الأيام مع إيران وغيرها - أما الحقوق وحقوق الضعفاء بخاصة، أو السلام الذى يشوق الناس إليه، فقد صار كله نسيًا منسيًا<sup>(١)</sup>.

ولهذا لا تكاد تنقطع الحروب ملتبهة وباردة، ويتخرب العالم شيعةً وكتلاً، ولهذا يطغى القوى على الضعيف، ويطمع المسلح فى الأعزل، ولا تكاد تنتهى حرب حتى تبدأ فى أعقابها حرب أخرى أشد طحناً، وأهول فتكاً ويفتخر المنتصر الظالم بنصره على أخيه كأنها كسب للإنسانية مملكة، أو حماها من مهلكة.

الوعى بلقاء الحضارات:

لعل نظرة فاحصة، إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية منذ اليونان وحتى نهضتها الحديثة، والحضارة الإسلامية منذ تبلورها كثمرة لاندماج هذه الموارىث فى الفكر الإسلامى الذى إستصفاها وطورها وفقاً لمعايره<sup>(٢)</sup>، هذه النظرة توضح أنه لم يكن المسلمون مجرد نَقَلَة، ولكن إضافتهم للأصول التى نقلوا عنها تشهد بأنهم زادوا وابتكروا؛ لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الحضارات التى أخذوا عنها وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

إذاً: لا بد من التصور الذى يقوم على أن الفكر - إذا نظرنا إليه على المستوى العلمى الإنسانى وجدنا فيه ما هو مشترك إنسانى عام لا يختص عنها بحضارة بذاتها وفيه أيضاً ما يتميز بالخصوصية والاختصاص. والتميز فى الفكر بين ما هو مشترك إنسانى وبين ما هو خصوصية حضارية، وإلتما تحكمه وتحدده معايير موضوعية. فكل العلوم التى تكون الطبيعة موضوعها وظواهرها المادة وخصائصها، هى من قبيل الفكر الذى هو مشترك إنسانى عام وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمى. ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية هى السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم تلك، الحقائق التى هى بنت الدليل، ولا تختلف باختلاف مذاهب وعقائد وأجناس وفلسفات المكتشفين<sup>(٤)</sup>.

(١) المرجع السابق: ص ١٠٩-١١٠.

(٢) محمد حمارة: الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٩، ط ٢ دار الشروق، القاهرة، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م.

(٣) أحمد عبد الرحيم السايح: العالم الإسلامى بين مصادر القوة وعوامل الضعف، القسم الثانى، العدد (٦٢)، ص ١٠٢ سلسلة قضايا إسلامية، تصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.

(٤) المرجع السابق: ص ١٠٢-١٠٣.

ومن ثم فهي لا تتغير بتغير القوميات والحضارات، بل هي واحدة على المستوى الإنساني، كما أن موضوعاتها المادة وظواهرها واحدة هي الأخرى، لا تختلف ولا تتغير باختلاف وتغاير الحضارات، فعلوم مثل الرياضيات وفروعها، ومثل الكيمياء والطبيعة والطب والجيولوجيا لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الحضارات. وقد تميزت وظائف واستخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها لكن حقائق علومها أي: "فكرها العلمي" سيطر واحدا مهما اختلفت المذاهب والعقائد والحضارات<sup>(١)</sup>.

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هي ظاهرة صحية طبيعية سليمة، لا خطر فيها ولا خوف منها.

والعرب هم وارثو الحضارات القديمة، إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة، فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم. ففي الشمال ازدهرت حضارة ما بين النهرين وحضارات الإغريق والكنعانيين والآراميين وجزر بحر إيجه.

وفي الغرب ازدهرت حضارة المصريين القدماء، وفي الشرق كانت الحضارة الفارسية ومن ورائها الحضارات الآسيوية الأخرى، وفي الجنوب كانت حضارة اليمن<sup>(٢)</sup>.

وكانت القوافل العربية دائمة الحركة بين مراكز هذه الحضارات عند أطراف الصحراء تنقل السلع والبضائع، وكان لا بد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضائع، وأن تختلط هذه الثقافات وتتزاوج في حركة بطيئة، ولكنها ثابتة مستمرة، وأن يؤدي كل ذلك إلى تصفية الأفكار والمعارف وتقديمها تبعاً لهذا الاختلاط والتزاوج<sup>(٣)</sup>.

وكان اختلاط العرب بهذه الأمم اختلاط قتال وحروب ومعارك أولاً ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك ومن هنا كان التأثير. ومن هنا كان التفاعل والتلاقح، وكان الأخذ والعطاء، وتبادل الأفكار والآراء.

وعندما نبحت في حضارات الأمم نجد ما هو مشترك وما هو خاص قد تم وفق أن هناك ما هو مشترك إنسانى عام، وهناك ما هو خاص.

فالتقاء الحضارات - وهو معلم التاريخ الحضارى للإنسانية وتفاعل هذه الحضارات

(١) عمدة عمارة: الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، مرجع سابق، ص ١٦.

(٢،٣) أحمد عبد الرحيم السليح: مرجع سابق، ص ١٠٥.

عندما تلتقى - هو قدر لا سبيل إلى مغالبتها أو تجنبه. ولكنه دائماً وأبداً وفق هذا القانون الحاكم التمييز بين ما هو مشترك إنسانى عام تفتح له الأبواب والنوافذ بل ويطلبه العقلاء ويجدون السعى في تحصيله وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون في حذر - قبل استلهامه وتمثله، ويعرضونه على معايير مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية<sup>(١)</sup>.

وما لا شك فيه أنه كلما استلهمت الحضارات ما هو مشترك إنسانى عام، تقدمت الحضارات واستفادت وازدهرت وانتشر الأمن والأمان.

والتفاعل والوعى بلقاء الحضارات ضرورة إنسانية، لا بد منها لقيام الحضارات، وتقدم الإنسان في كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع في المجتمعات الإنسانية السلام والأمن.

ويكاد يكون مؤكداً أنه لا توجد حضارة قامت ذاتها، واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها، وإنما هي نتيجة تطور حضارى دائم وتفاعل بين حضارات أخرى تفاعلت هي بدورها وغيرها من الحضارات في الزمان والمكان.

**صدام مصالح أم صدام حضارات أم صدام أديان؟**

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأَيُّمُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالله سبحانه وتعالى خلق الناس من نفس واحدة وجعل منها زوجها، من ذكر وأنثى هما آدم وحواء وجعل العباد شعوباً وقبائل، والشعوب أعم من القبائل، فلا فرق بينهم جميعاً، وليس لأحد أن يفخر على أحد بأب أو أم أو بأجداد؛ لأن أصل الجميع واحد، فلا اعتداد بحسب أو نسب، فكلهم لآدم وآدم من تراب، وجعلهم الله تعالى شعوباً وقبائل متنوعة وكثيرة، ليكون التعارف والتألف، والتضامن والتعاطف فلا يتفرقون ولا يختلفون، ولا يتفاخرون، ولا يتقاتلون، فالحكمة من جعلهم شعوباً وقبائل أن يعرف بعضهم نسب بعض، ولا ينسب أحد لغير آبائه ولا يتفاخرون، فلا فضل لأحد إلا بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾.

وهناك مقولة منطقية نصها: "ليست هناك صداقة دائمة أو عداوة دائمة، وإنما هناك

(١) محمد عمارة: الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

مصالح دائمة". ومن هنا يكون الحديث دائماً عن تبادل المصالح بين دول العالم شرقه وغربه، ولا يمكن لدوله أن تعيش في معزل عن بقية دول العالم، فالدولة كبرت أم صغرت تحتاج لغيرها من الدول في تبادل المصالح حتى وإن اختلفت مع الغير في العقيدة الدينية أو الفكر الثقافي أو الاتجاهات السياسية.

وكانت مصر وما زالت - خلال النصف الثاني من القرن العشرين - تبادل المصالح مع كل دول العالم دون استثناء مهما اختلفت معها في النواحي الدينية والثقافية والسياسية. لقد تعاملت مصر مع المعسكر الغربي بزعامة الولايات المتحدة في النواحي الاقتصادية والتعليمية وإن اختلف مع دول المعسكر دينا وثقافة وسياسة، بل كانت تحارب القواعد العسكرية الغربية وتعاملت مصر مع دول المعسكر الشرقي بزعامة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في الجوانب الاقتصادية والتعليمية، رغم أن مصر لا تعترف بالفكر الماركسي بل تحاربه سواء داخل مصر أو في الدول العربية والإسلامية الشقيقة<sup>(١)</sup>.

وهكذا تغلب على المصالح المشتركة بين الدول الإسلامية والدول الغربية وخاصة في المجالات الثقافية والتعليمية، وفي السنوات الأخيرة من القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين، ونتيجة لظهور ما عرف بالنظام العالمى الجديد الذى ترتب عليه الولايات المتحدة الأمريكية، وتفكك الاتحاد السوفيتى، بدأنا نسمع في دول الغرب عن ربط الإرهاب بالإسلام والمسلمين، وأن العدو الآن للدول الغربية هو الإسلام، بل ونقرأ كتابات عن نهاية العالم، وصدام الحضارات<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا كان لابد من مواجهة هذه الحملة المغرضة ضد الإسلام والمسلمين وذلك بعقد الندوات والمؤتمرات ونشر المقالات سواء في الدول الإسلامية أو في دول الغرب، بمعنى مخاطبة الآخر - الغرب - بأن الإسلام لا صلة له بالإرهاب، وبأن الحضارات تتفاعل، ولا تتصادم، وإن الاختلاف الدينى والثقافى بين الإسلام والغرب لا يحتم بالضرورة صداماً، قال تعالى في ذلك: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون].

وهناك مصالح مشتركة بين الإسلام والغرب وإن اختلفت الرؤى السياسية أو العقيدة الدينية أو الفكر الثقافي بين الطرفين (الإسلام والغرب)، وهذه المصالح المشتركة في

(١) رأفت غنيمى الشيخ: مصالح أم تصادم حضارات، سلسلة فكر المراجعة (٢)، الإسلام... وحوار الحضارات، دار البيان للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، ص ١١٩-١٢٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢٠.

الجوانب الآتية:

### ١- المصالح الاقتصادية:

حيث تشمل المصالح الاقتصادية بين الدول الإسلامية والدول الغربية في مجال البترول والتجارة، حيث يتم التبادل بين الجانبين على النحو التالي:

أ- البترول:

أى: قيام شركات البترول الغربية في التنقيب عن البترول في الدول العربية والإسلامية بما تملكه من تقنيات تكنولوجية وبشرية. وقد أثبتت الدراسات بأن الدول الإسلامية لها ثقلها في منظمة الأوبك: "أى الدول المنتجة والمصدرة للبترول" حيث إن هذه الدول لديها ما يزيد عن ٦٠٪ من احتياطي البترول العالمى، وتنتج ما يزيد عن ٤٠٪ من الإنتاج العالمى للبترول، ومعظم إنتاج الدول الإسلامية من البترول تستهلكه الدول الغربية، كما تشارك شركات البترول الغربية في استخراجهِ وتسويقه<sup>(١)</sup>.

وهذا يمثل مصلحة مشتركة بين الطرفين وإن كانت الشركات الغربية تحقق استفادة أكبر لحصولها على عوائد كثيرة كاستخدام تقنياتها، ودفع مستحقات الدول العربية والإسلامية بعملات الدول الأوروبية خاصة الدولار والتي توضع في مصارف الدول الغربية.

### ب- التجارة:

الدول الإسلامية تستورد الكثير من السلع المصنعة في الدول الغربية سواء كانت سلعةً تكنولوجية أو أسلحة ومعدات عسكرية أو سلعة وسيطة للمصانع. كما أن الدول الغربية تستورد من الدول الإسلامية الكثير من السلع والخامات اللازمة للمصانع الغربية (المواد الخام).

وخلاصة ما سبق: أن المجال الاقتصادى يمكن أن يكون محورًا للمصالح المتبادلة بين العالم الإسلامى والغربى والتي يمكن الاستفادة منها في توضيح أن المصالح المشتركة بين الأطراف تثبت أن التفاعل بين الحضارات هو الأبقى لمسيرة الحياة واستمرارها لمصلحة الشعوب.

(١) رافت غنيسى الشيخ: مرجع سابق، ص ١٢١.

تتمثل المصالح الثقافية بين الدول الإسلامية والدول الغربية في الاحتكاك الحضارى بين الطرفين، والتبادل الثقافى بينهما بما يعمق الفهم المتبادل، ويقلل من فكرة الصدام.

الدول الغربية استفادت من التراث الإسلامى منذ ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وجاءت هذه الاستفادة من خلال المراكز الثقافية الإسلامية فى مالطة، والأندلس، وصقلية، وأثناء الغزوات الاستعمارية للبلاد العربية والإسلامية المعروفة باسم الحملات الصليبية، ثم أثناء الفتح العثمانى الإسلامى لأقطار شرق أوروبا.

وفى المقابل استفادت الدول العربية والإسلامية من ازدهار الحضارة الغربية بعد الثورة الصناعية فى أوروبا من خلال الغزوات الاستعمارية الأوروبية بما أتت به من مؤثرات ثقافية هزت العقول فى البلاد الإسلامية ودفعتها إلى التفكير فى أن هناك ثقافة وحضارة مزدهرة فى أوروبا، عليها أن تسعى للأخذ منها بما يتفق مع قيم المجتمعات الإسلامية<sup>(١)</sup>.

فقد استفاد محمد على حاكم مصر العثمانى من الحضارة الأوروبية فى استفاد العلماء من أوروبا، وكان للبعثات التبشيرية (التنصيرية) الغربية تأثيرها فى الدول الإسلامية، فعلى سبيل المثال: نشطت تلك البعثات فى أقطار الشام، ومصر والخليج، والسودان، والصومال، وأقطار شمال إفريقيا.. وذلك من خلال ما أسسته من مدارس وكنائس ومستوصفات ونوادى اجتماعية ورياضية.. ومشاغل لتعليم الفتيات مهن الحياكة والتطريز وأعمال الإبرة وغير ذلك<sup>(٢)</sup>.

ويعيش العالم الإسلامى حالياً تحت ضغط الغزو الثقافى الغربى الساعى للتأثير على الهوية الثقافية والإسلامية من خلال القنوات الفضائية الغربية والإنترنت، والصحف الغربية، ومعظمها تبث قيماً لا تتفق مع القيم السائدة عند المسلمين، ومن ثم فالعالم الإسلامى: دوله ومؤسساته الإعلامية والثقافية والتعليمية، يقع عليها عبء التصدى لهذا الغزو الثقافى ببرامج واضحة لتسليح أبناء المسلمين بالفكر المستنير ومحاطبة الأخير - الغرب - بالحجة والمنطق<sup>(٣)</sup>.

(١) المرجع السابق، ص ١٢٧.

(٢) رأفت غنيمى الشيخ، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٨ - ١٢٩.

ولنا في تجربة اليابان وكوريا الجنوبية مثل في هذا، حيث استفادت الدولتان من الحضارة الغربية في تطوير نواحي حياة الشعبين الياباني والكوري الثقافية والتعليمية والسياسية، مع المحافظة على الهوية الثقافية للشعبين، ودراسة هذه الخاصية (الحقيقة) خاصة منذ عهد مييجي أو عصر النهضة ابتداء من عام ١٨٦٨م ثم البناء المعاصر بعد الحرب العالمية الثانية<sup>(١)</sup>.

وهكذا يمكن لنا الاستفادة من الجوانب الثقافية المتعددة في التحوار مع الغرب، وذلك لمصلحة شعوب العالم الإسلامي والغربي معاً.

### ٣- المصالح السياسية:

تنطلق المصالح السياسية بين الطرفين (الإسلام والغرب) من خلال عضوية كل من الطرفين في منظمة الأمم المتحدة (الجمعية العامة للأمم المتحدة) ومنظماتها وهيئاتها المتخصصة، حيث يتم تبادل الآراء والأفكار والمواقف والرؤى أو أى اتفاق بين الطرفين.

ويشعر المسلمون بالضيق بسبب سياسة الكيل بمكيالين التي يتخذها الغرب من قضايا العالم الإسلامي، فعلى سبيل المثال: فقد أيدت القوى الغربية تمزيق أندونيسيا بالضغط على حكومة جاكرتا حتى تم إجراء استفتاء لشعب تيمور الشرقية ليحصل على الاستقلال عن جمهوريته أندونيسيا، وقد تم ذلك بالفعل، هذا في الوقت الذي لم تشجع فيه على إجراء استفتاء لشعب كشمير لأن أغليته مسلمة.

ومن هنا كان على منظمة المؤتمر الإسلامي الذي تنتظم فيه كل الدول الإسلامية، وجميع الدول العربية والإسلامية، مسؤولية متابعة قضايا العالم الإسلامي، ومحاولة التأثير على موقف الدول الغربية السياسي دون كلل ليس بالتوسل، وإنما باستخدام المصالح المتبادلة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، ومن هنا تأتي السياسة التي يجب على العالم الإسلامي اتباعها وتفعيل الآليات المؤثرة.

وقد ناقش كثيرون معارضون "هيتنجتون" في صدام الحضارات، مبيّنين: أن الدافع الحقيقي وراء الحروب إنما هو مصالح الدول والقوى الكبرى، ومطامع الزعماء، وليس الخلاف الحضاري. قال ذلك الدكتور بيكو المكلف بحوار الحضارات في الأمم المتحدة في

(١) رأفت غنيمي الشيش: مرجع سابق، ص ١٢٩.

لقائه بقناة الجزيرة وقال ذلك الدكتور الجابري في تعقيبه على " هيتنتجتون " وكتابه وهذه عبارته: لو أن الكاتب كان يفكر في قضايا عصره من أجل فهمها، والتماس حلول تحدم صالح الإنسانية ككل، مع افتراض أنه مقتنع فعلا بأن " صدام الحضارات " يهدد الأمن العالمي في المستقبل، كان المفروض أن ينتهي هذا الكاتب إلى نتيجة يدعو فيها جميع الجهات، وجميع الدول والأمم، إلى الوعي بهذا الخطر، ويقترح عليها اتخاذ التدابير الضرورية الكفيلة بتلافي هذا الخطر الماحق. لكن صاحب المقالة سلك مسلكا آخر معاكسا تماما، فتعامل منذ البداية مع " الفرضية " لا كمجرد فرضية تعبر عن احتمال وقوع أمر ما، بل كحقيقة تاريخية حكمت تطور التاريخ في الماضي وستحكمه في المستقبل. وهكذا راح يعيد بناء " التاريخ كله " بالصورة التي تجعل منه " صدام الحضارات " الماضي في ذلك والحاضر سواء، باذلا كل جهده لحشد الأمثلة والوقائع التي تؤيد هذه " الحقيقة التاريخية " المزعومة: يختار أمثلة من هنا وهناك، ويؤولها تأويلا يبتعد بها عن إطارها ويلبسها دلالات لا تحتملها<sup>(١)</sup>.

والهدف من كل ذلك: التهويل والتخريف، وإعداد القارئ لتقبل النتيجة وتحمل ما يلزم عنها، وكأن ذلك قدر لا مفر منه. والنتيجة التي أفصحت عنها المقالة هي: ضرورة أن يستمر الغرب في تطوير قواه العسكرية، وبالتالي ضرورة أن يصرف ما يلزم من الأموال في سبيل ذلك.

ويقول الجابري: إن هناك ثابتا واحدا أساسيا في موقف الغرب، والباقي متغيرات. والموقف من الإسلام أو من الصين أو من اليابان أو من أية دولة أخرى في العالم يتغير دائما، وقد يقفز من النقيض إلى النقيض، إذا اقتضى ذلك منطق " الثابت ". وليس الثابت في تحركات الغرب شيئا آخر غير المصالح، فعندما تمس مصالح الغرب أو يكون هناك ما يهددها تغير الموقف. وفي النهاية يقول: الغرب مصالح ولا شيء غير المصالح، وكل حوار معه أو تفكير ضده لا ينطلق من المعادلة التالية ( الغرب = المصالح ) إنما هو انزلاق وسقوط في شباك الخطاب التمويهي السائد في الغرب والهادف إلى صرف الأنظار عن " المصالح " وتوجيهها إلى الانشغال بما يخفيها، ويقوم مقامها في تعبئة الرأي العام مثل الحضارة، والثقافة، والدين، والأصولية.

(١) يوسف القرضاوي: المسلمون والعملة، مرجع سابق، ص ١٢٣ - ١٢٤.

وصحيح أن الغرب تحكمه المصالح قبل كل شيء، ولكن الغرب بالنسبة للإسلام تحكمه - مع المصالح - عقد قديمة جديدة، هي عقدة الحقد، وعقدة الخوف. الحقد المتوارث من عهد الحروب الصليبية، وربما من عهد اليرموك وأجنادين وفتح مصر وشمال إفريقيا وكلها كانت مسيحية وأصبحت إسلامية. وعقدة الخوف من انطلاق المارد الإسلامي مرة أخرى. فهم يسمون الإسلام (الخطر الأخضر) خطر ظهور (صلاح الدين) من جديد، وهو الخطر المخوف رغم ضعف أهله وتفرقهم. إن هاجس الخوف مع هاجس الحقد، هما اللذان يؤثران في السياسة الغربية بل والفكر الغربي تجاه الإسلام.

ويقوي هذه الهواجس ويؤكد لها في عصرنا (البعث الديني) الذي برز بوضوح في العقدين الأخيرين في أمريكا، عن طريق (المسيحية الأصولية) المرتبطة بالتوراة، والتي تعمل لخدمة الصهيونية وإسرائيل تدينا، وتعبداً<sup>(١)</sup>.

وفي الختام نود أن: يتحرر الغرب من هذه العقدة، ويعامل المسلمين كما يعامل سائر الأمم والقوى في العالم. وإن كنا نؤمن أن الغرب ليس نمطاً واحداً، ولا صنفاً واحداً، ففي الغرب أناس وأفراد منصفون، نرجو أن يتزايدوا يوماً بعد يوم.

وفي الفصل التالي نعرض لرؤى مستقبلية لعلاقة الإسلام والغرب، من حيث نقاط الاتفاق "وفاق" بين الطرفين، ومعرفة أسباب تأخر الوفاق بينهما، وآفاق بناء مستقبل مشترك.

(١) يوسف القرضاوي: المسلمون والعلوثة، مرجع سابق، ص ١٢٦.